

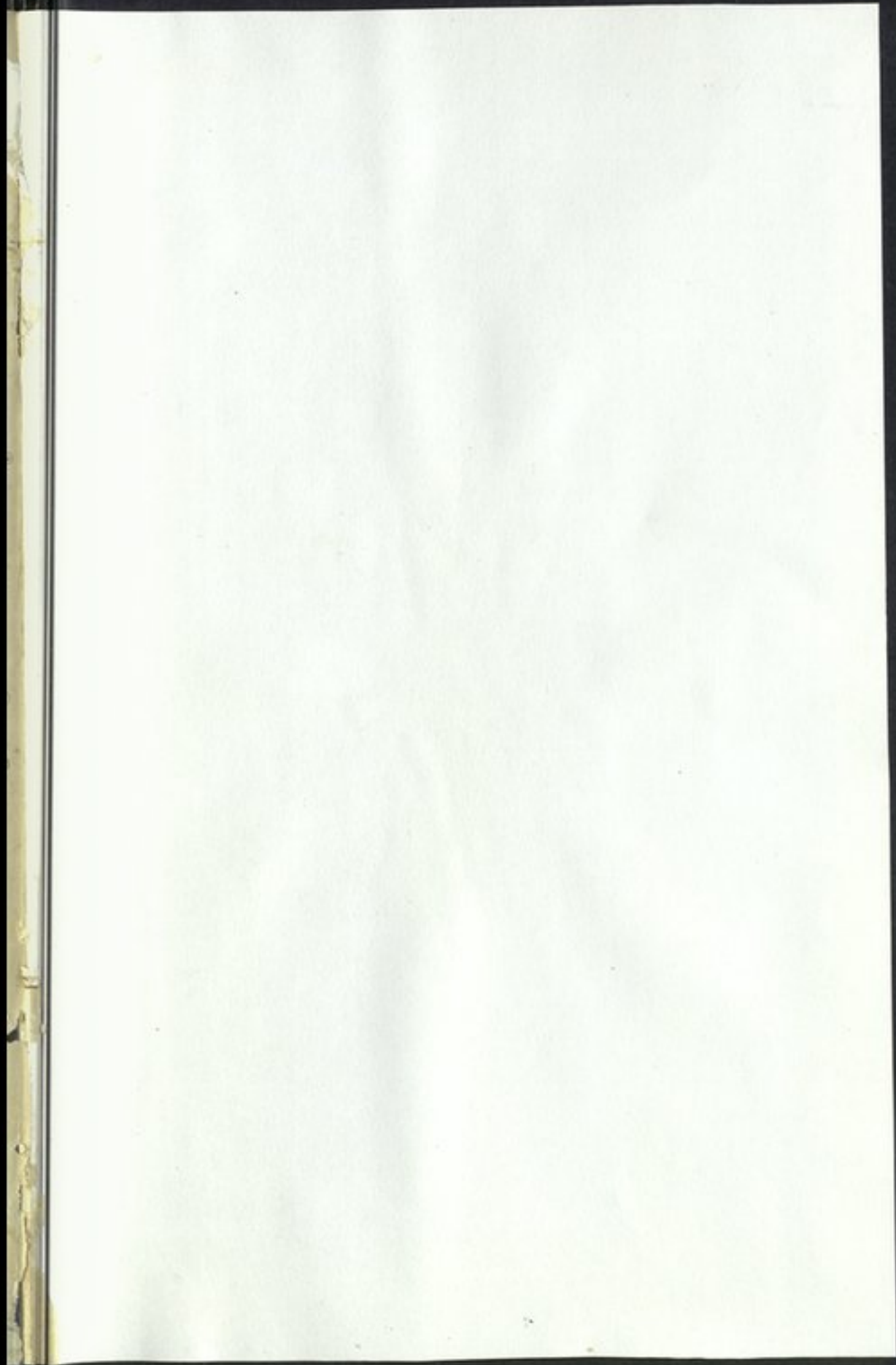
502-791-5144
www.pearson.com
PEARSON
SUNSHINE
C.A.

A.U.B. LIBRARY

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT



A.U.B. LIBRARY



892.78

Sillas A

أبواب التوبة إلى ربنا

رواية تاريخية عصرية

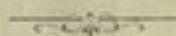
« تأليف »

الدكتور خليل بك سعاد

« حقوق الطبع والترجمة محفوظة للمؤلف »

« مطبعة الممنون بعابدين بمصر سنة ١٩٠٥ »

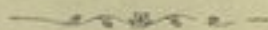
هدية الكتاب



الى

عطوفتو أفندم

ادريس بك راغب



شعار مودة وولاء ❧ ❧

توطئة

سيكون للثورة الروسية التي لا تزال حتى الساعة نارها في اضطرام
واوارها في استعار من تغيير شؤون الجنس البشري ونهضة الامم ما كان
لشقيقتها الثورة الفرنسية في أواخر القرن الثامن عشر من الضرب على
يد الجور الاثيمة وكسر أغلال الظلم وقيود الاستبداد والخروج بيني
الانسان من دياجير الجهل والاوهام الى فضاء الحرية ومناهل العمران
وليست هذه الثورة طفرة ولكنها ثوران بركان عظيم في المجتمع
الانساني يتمشى على سنن البراكين الطبيعية التي ظاهرها طفرة ولكنها
اذا تحريت أسرارها وفقحت أسبابها ادركت انها نتيجة اضطرابية
لاسباب طبيعية لبثت دهرًا طويلًا طبي حجب الخفاء والكتمان فهي عبارة
عن ضغط مائة وعشرين مليونًا من النفوس حولتها نار الاستبداد بخارًا
في مرجل تلك الامبراطورية العظيمة فاذا هي لم تجد لها منفذًا انفجر
ذلك المرجل انفجارًا هائلًا وتبعثرت اجزاؤه هباءً منشورًا في الفضاء
ولقد أتينا في هذه الرواية على بيان الاسباب التي تعمل منذ قرون
عديدة على تهيئة افكار القوم وخواطرم حتى استعرت الآن ثورة اندلع
لهيبتها في بطرسبرج وموسكو وفنلندا وبولونيا والقوقاس وسائر أرجاء
تلك الامبراطورية المتناثية الاطراف ثم اتنا ألمعنا ايضًا الى مايقع على افراد
الامة من حيف حكام المقاطعات واستبداد العمال وجور المديرين وفصلنا
ضروب النكال والعذاب التي يلقاها المنفيون الى سيبيريا وأوضحنا أساليب
الجانسية الروسية في تلك البلاد وسائر عواصم أوروبا وأعمال النهلست الخفية

وجرائمهم التي دوت بها ارجاء اوربا وهلعت لهولها قلوب ملوكها وحسرتنا لثام
الابهام عن كثير من الاسرار التاريخية التي لبثت حتى الآن ظلي حجب الخفاء
ولا يظن المطالع ان وقائع هذه الرواية من تخرصات الاوهام وصور
الخيال بل هي وقائع تاريخية وقف عليها كل من له الملم بحوادث الامة الروسية
نحو مغيب القرن المنصرم وفجر القرن الحالي وقد أخذنا شيئاً كثيراً من
كل ذلك عن ثقات الكتبة الذين انقطعوا الى هذه الابحاث وجابوا اقفار
سيبيريا حتى بلغوا اقصاءها ووقفوا على مكنونات اسرارها وخبايا أهوالها
وشاهدوا المنفيين في مناجها ورأوا ما حل بهم من ضروب البلايا وأنواع
العذاب رأى العين وعلمو تفاصيل مكابد النهلست واشراك محكم
والجرائم التي يقترفونها للايقاع بالسلطة الامبراطورية أو ارهابها مما تناولت
ذكره جرائد العالم المتمدن وفي صدرها جريدة التيمس الذائعة الصيت
التي نشرت بهذا الصدد مقالات ضافية الذبول

ولقد نسقنا كل ذلك في قالب روائي يفقه منه المطالع اسرار الثورة
الحالية ونظن ان هذا الكتاب أول رواية عربية نسجت على منوال
عصري يتناول الحوادث الواقعية التي لا تزال حتى الساعة تردنا بشأنها
مقالات الجرائد الاجنبية تباعاً وتتوارد التفرافات تترى تنقل كل يوم
حديثاً جديداً عن اندلاع لسان الثورة واضطرام سعيها ووميض بروقها
وللمعة رعوها وما كل ذلك سوى آلام أمة يربو عددها على مائة وعشرين
مليوناً من النفوس تتمخض بطفل لم تر له مثيلاً قط يسمى الحرية -
طفل عمدته بماء العيون ودم القلوب وصراخ اليتامى ونحيب الارامل وبكاء
الشكالي وزفرات الصدور حتى بلغ عويلها عنان السماء

المقدمة

برى الساحل بين هضاب لبنان وانجاده بناء فخياً على شاهق من ربوة تحف
بها الأنجم والأشجار وتعلوها الرياحين والأزهار يجري في سفحها العتيق أخايد
في أعماق الوهاد وتعلو الطبيعة حولها ملكة بارزة في جلباب العظمة والجمال فانك
إذا نظرت شرقاً رأيت جبل صنين وقد لبس تاجاً من الثلوج ينطج به هام السحاب
وقد تلبد الغمام فوقه جلايب بعضها فوق بعض ثم تبدى أمامك سلسلة من
الجبال تخترقها الأودية وقد كساها النبات وغطت سفحها الأشجار وإذا ادرت
لحاظك غرباً وجدت البحر المتوسط منبسطة رقعة زرقاء كأنه عند موطن قدميك
تهدى أمواجه الطامية متلاحمة على سطحه فاذا قربت من البر تنفست زبداً
وانبسطت على تلك الرمال حيث قائمة هنالك تلك العروس البديعة مدينة بيروت
الجميلة التي قال بشأنها امبراطور المانيا عند وصوله اليها انها آمن درة في تاج
سلطنة آل عثمان

وهذا البناء الفخيم الذي أتينا على ذكره الآن انما هو معبد قديم العهد
كان أولاً بناء صغيراً افتمت من النساك الذين زهدوا عن الدنيا أطلق عليه اسم
دير مار ايلياس شويماً وكان أول عهده بناية صغيرة تقي ساكنيها وقع الصواعق
وتهاطل الثلوج المتركمة وانهمال الأمطار الغزيرة فلما اتبعت الرهبنة سنة الارثقاء
وكثرت أوقاف المعبد ودرت خيراتها وانهاالت على الخزينة دنانير الزوار شيد
أولئك النساك قصرًا منيفاً اذا وقفت على سطحه رأيت منظرًا من أبدع مناظر
الطبيعة وأشدها وقعاً في القلوب والنفوس

ثم أن في جوار سفح هذا المعبد بلدة في مطمن من الارض تسمى الشوير
كانت أولاً غاباً كثيفاً يتفجر الماء منه زلالاً فاتخذ بعضهم منذ بضعة قرون
هذه البقعة موطناً لهم فقطعوا الأشجار وابتنوا المنازل وكانت أوائل أمرها قرية
ثم تدرجت حتى صارت الآن بفضل جد أهلها مدينة صغيرة كانت من أوائل

المدن التي طلع عليها فجر المعارف في لبنان وبزغت على أهلها شمس العلوم وقد
اشتهرت مؤخراً روايتها بجودة المناخ وطيب الهواء حتى أصبحت مصححاً يقصدها
الاعلاء من سورين ومصرين وخصوصاً من كان مصاباً منهم بالعلل الصدرية وهي
مسقط رأس المؤلف حيث صرف زمن الحداثة والصبوة

ولقد أتيت لي منذ برهة يسيرة زيارة هذا الوطن العزيز حيث دُعيت أن
أصرف بضعة أيام في الدير الذي مرّ بيانه ترويحاً للنفس من مشاق العمل
فالتقيت بين زواره والمقيمين فيه برجل طويل القامة براق المقلتين بالغ سن
الكهولة قدم الدير حديثاً وكان يصرف أكثر أوقاته في العزلة والانفراد عن مجالسة
القوم فاذا دخل المعبد للصلاة تأخر عن الجمهور ولبث جاثياً على ركبتيه وهو رافع
يديه الى السماء ولا يخرج الا اذا أعياه الجثو

ثم علمت بعد ذلك أن الرجل روسي المتمد قدم ربوع لبنان بعد شوب
الثورة الروسية التي لا تزال حتى الساعة نارها في سعير فتاقت نفسي الى معرفة
شيء من أمره واتفق بعد ذلك ان تعارفنا وتصادقنا وفيما كنا جالسين أصيل
ذات يوم بجانب نبع يتفجر منه ماء الصافي كذوب اللجين يسمى عين الصرقد وخطرات
النسيم تحرك أغصان الأشجار ووريات الأزهار ينتشر أريجها عبيراً ينعش الصدور
ويشرح النفوس تطلع اليّ وقال

« انظر ما أبهى الطبيعة حولنا فان كل ما فيها جميل من نسيم بليل وماء
كذوب البلور وأشجار باسقة وأنجم مزهرة وزهور متأرجة وطيور مفردة وجو
صاف وشمس مشرقة ولكن الانسان جحود كفور بنعمة ربه يفسد عمل خالقه
ويعيث في الأرض شراً ويملاً جوها فساداً ويصبغ أديمها دماً ويأتي من
المنكرات والموبقات والجرائم ما يندي له الجبين وتصطك المسامع »
فنظرت اليه باسمياً وقلت

« أراك شديد التدين كثير الاستغفار تصرف نهارك راكعاً وليلك مصلياً
فلو وجد شخص آخر نظيرك في العالم لكفرتما باستغفاركما عن سائر سيئات الجنس
البشري »

فأن الرجل انه خرجت من أعماق احشائه وأجاب
« لو وجد رجل آخر نظيري في العالم لما أشرقت الشمس على الارض
ولحجب الله وجهه عن أبناء آدم »
وبعد أن تجاذبنا أطراف الحديث حيناً من الزمن استأذن الرجل بالانصراف
فبقيت جالساً وحدي أفكر في أمره وفيما كنت أنظر حولي رأيت ورقة بجانب
الصخر الذي كان جالساً عليه فلما فتحتها وجدت فيها ما يأتي
موسكو في ١٨ فبراير سنة ١٩٠٥
مولاي فلاديمير

ان لجنة الثورة هنا عقدت اجتماعاً الاسبوع المنصرم وقررت فيه عملاً بأوامركم
السامية الاشتراك مع زعماء العمال في الرأي والاعتصاب العام عند ما تبلغنا أخبار
اعتصاب العمال في بطرسبرج حتى تم الحركة الثورية سائر الاصقاع الروسية دفعة
واحدة ولقد جاءتنا الامدادات المالية التي تكرمتم بارسالها اغانة للعمال أثناء
الاضراب عن العمل وقيمتها عشرة ملايين روبل ولما شاع أمر الاعتصاب العام
في بطرسبورج المعروف بيوم فلاديمير لم نلبث هنا ان اقتفينا أثركم ولما وزعنا
الدرهم على العمال أثناء العطلة شاع على أثر ذلك ان هذه الاعانات انما هي من
مصادر يابانية انكليزية وجاهرت الحكومة المحلية بذلك إذ لصقت اعلانات
بهذا الصدد في سائر شوارع المدينة مما أفضى الى اعتراض سفير انكلترا اعتراضاً
شديد اللهجة على ما أفدتكم في رقيم سابق بالتفصيل

والغرض من كتابة هذا الرقيم الآن هو أن تحيطوا علماً بتفاصيل مقتل
الفرانديك سرجيوس الذي دوت بنبهه سائر الاندية السياسية في أنحاء العالم
وهلعت قلوب العائلة المالكة فقد سبقت فأنبأتكم في التقرير السابق أن الحكم
قد صدر عليه في اجتماعنا الاخير بالاعدام وللبلوغ الى هذا الغرض القينا قرعة
كالمعادة فوضعنا أوراقاً ملفوفة في كيس بعدد الاعضاء المجتمعين وعلى
واحدة منها اشارة الاعدام المختصة بجمعيتنا ثم جرى السحب على هذا الاسلوب
حتى لا يعلم أحد من هو الذي وقعت قرعة الاعدام عليه خوفاً من افشاء السر

لأنك أدري انه ينخرط أحياناً في عداد جمعيتنا بعض من الاقوام لغرض الجاسوسية
ولما اتقضى سحب هذه الاوراق لم يبد على وجه أحد من الحاضرين ما يدل على
أن القرعة وقعت عليه وكانت القنبلة التي أحضرتها الجمعية من لندن لهذا الغرض
موضوعة في صندوق في غرفة خاصة ولما انصرف الاعضاء لم تكن القنبلة هناك
ولكن لم يعلم الرجل الذي استلمها أما تفاصيل ذلك المقتل فلا لزوم الى تبيانها
لأنها أصبحت الآن حديث القوم وسمرهم

ثم اني أفيدكم أنه مع شدة هذه الاحتياطات التي اتخذناها قد وشى بكم
واش الى ادارة البوليس هنا وسلها عنوان موضع اقامتكم ولما كان وجودكم في
الاصقاع الروسية في مثل هذه الظروف محفوفاً بالمخاطر وجب عليكم تركها حين
بلوغ هذا الكتاب الذي قد بعثنا به صحبة أحد الامناء خوفاً من وقوعه في أيدي
عمال الحكومة وفي الختام أهديكم تحياتي واحترامي

رئيس لجنة الثورة في موسكو

موضع الامضاء

فما انتهيت من مطالعة هذا الرقيم حتى اعتراني ذهول شديد كدت أغيب
فيه عن رشدي لاني علمت أن الرجل الذي اصبح لي لغزاً من الالغاز ليس سوى
ذلك الرجل العظيم الذي طبقت شهرته الآفاق وتحدثت به عظام ساسة العالم الا
وهو غورنشا كوف سرجيوس فلاديمير امبراطور النهاست او جنرالهم الكبير الذي
أنت على تفاصيل أعماله أشهر جرائد العالم وبينما أنا على هذه الحال والعرق يتساقط
من جيني كالطلل واذا بالرجل قد عاد فنظر اليّ نظرة لا أنساها مدى الحياة وكان
لا يزال ذلك الرقيم الخفيف في يدي فاخطفته وقال بصوت أسيف

أما الآن وقد أظفرك الحظ أن تقف على شيء من أسراري فانك دون
ريب تفقه السبب الذي لأجله قلت لك اني أشقى البشر

فوقفت مندعراً في موضعي كما لو كان أمامي أفعى وأجبتة

« لو علمت انك ذلك الرجل الذي ذهبت جرائمه مثلاً بين الملا وانك
قاتل سفاح وزعيم تلك الطغمة التي تعلمت منذ نعومة اظفاري أن امقتها وأحتقرها

لحسبت مكالمتي لك جريمة ومجالستي اياك ائماً لا يغفر »

فأمسكني الرجل بيدي وقال

« أستحلفك بالله ألا تمتني فقد كفاني من نفسي زاجراً ومن ضميري موبخاً
وهذا ما حدثني الى استغفار ربي نهراً وولياً وبكرة وأصيلاً بيدك اذا أصغيت
الى حديثي وعلمت جلية أمري فقمت الى أي حد يدفع الانسان جور الانسان
فاجلس الى جانبي لأقص عليك ما تنوق الى معرفته أسمى رجال السياسة وأبلغ
كتاب العصر مما لا يزال حتى الساعة طي الخفاء والكتمان والله على ما أقول شهيد »
ثم أمسكني الرجل بيدي وأجلسني الى جانبه وأخذ يقص علي بصوت يتقطع
كأبة وأسى الحديث الآتي

الفصل الاول

« الجور يلد ائماً »

كنت في أوائل العمر من اسرة ذات ثروة طائلة وجاه بعيد الصيت وكان
والدي أعظم تجار مدينة بطرسبرج وأكثرهم نفوذاً ولم يكن لي سوى شقيقة
رييت واياها الى أن ترعرت وبلغت سن الرشد واذ ذلك اضطرت الى ترك
الأهل ومغادرة الخلان للقيام بالخدمة العسكرية التي يقضي بها قانون البلاد وكان
ذلك أمراً عسيراً علي لاني اعتدت الترف والرفاه ولكنني تجللت وصبرت على
ما قُدّر لي صبر الكرام

أما الموضع الذي ذهبت اليه لانمام الخدمة العسكرية فهو بجانب سهول بحيرة
كوبنسكوي المقفرة فتحملت المشاق صابراً على مضمض العيش وكانت الرسائل
التي ترد علي من أسرتي تباعاً بلسماً شافياً لكأوم القلب ومجازاً للنشاط والاقدام
ونوراً يبدد عن عيني ذلك الظلام الدامس إلا أنه ما انقضى علي سنتان من
الزمن حتى انقطع ورود هذه الرسائل فجأة فبعثت أستنبي الأهل دون أن

يردني جواب على الاطلاق فطيرت على جناح البرق رسائل استنقضي بها الاسباب ولما لم يجدني ذلك نفعاً بعثت بكتب عديدة الى اخص الأصدقاء دون أن أظفر بطائل ولما أعيتني الحيلة تقدمت الى رؤسائي استيحبهم الاذن بالذهاب الى بطرسبرج فذهبت أتعابي أدراج الرياح فاضطرت الى البقاء مرغماً وأنا على أحر من الجمر واتفق صباح ذات يوم أن التقيت برفيق يتمشى وهو يطالع أحد أعداد جريدة النوفوفريميا الشهيرة فلما دونت منه قبض على ذراعي وأشار الى فقرة من ذلك العدد وسألني « هل الرجل من ذوي قرباك؟ » فما أجلت نظري في تلك الفقرة حتى علا وجهي الاصفرار وسقطت الجريدة من يدي ووقفت صامتاً وقد تولاني اليأس وكان فيها ما يأتي

« ان سر جيوس فلاديمير منري بطرسبرج الشهير كان في عداد المنفيين الى سيبيريا أثناء الأسبوع الغابر عملاً بالأوامر السامية الصادرة من الدوائر الرسمية بهذا الصدد »

ولما سكن جاشي وثاب الي رشدي وفقهت ما حل بوالدي استفزتي عاطفة الخو لمعرفة ما جرى لوالدي وشقيقي على أثر هذه النايبة فألححت في طلب الاذن بالذهاب الى بطرسبرج فلم يُغن ذلك شيئاً بل أكرهت على البقاء الى أن أتممت الخدمة العسكرية فما صدقت أن انبثق فجر ذلك اليوم حتى ركبت القطار وبلغت مسقط رأسي ولا بد لاتمام هذا الحديث أن أقص عليك ما علمته بعد ذلك من شقيقي أولغا

وشى بعض أعداء والدي وحساده به الى القيصر فأصبح من المغضوب عليهم لغير ذنب وينا كان قصرنا ذات ليلة مزداًناً بالألوان والألحان الموسيقية تشف الآذان والمدعوون في رقص وطرب اذا بيضعة نفر من رجال البوليس دخلوا على حين فجأة فالتقوا القبض على والدي ثم قضى عليه بعد اسبوعين بالنفي الى المناجم التي بجوار بحيرة بيكال دون تحرر أو محاكمة وصودرت أملاكه وطردت والدي وشقيقي من القصر الى الأزقة والشوارع فاضطرتنا أخيراً للذهاب الى بلدة صغيرة في مقاطعة موغهايف حيث أخذنا تشتغلان

بالتطيرز قياماً بأودهما ثم حصل بعد وصولها الى هناك فخط أوقع الأهالي في
مجاعة شديدة ولما بلغت بطرسبرج للاستخبار عنهما كانتا في أسوأ حال وأنا لا
أعلم لهما مقرّاً

أما والدتي فإن الجوع قد بلغ بها مبلغاً برّح بجسدها وأنها فاضطرت
الى ملازمة فراش رث في غرفة شديدة البرد والزهرير وتبدي عليها من لوائح
الشحوب والحوار ما أيقنت معه ان شبح المنية واقف بجانبها وكانت شقيقتي اولغا
واقفة امامها تذرف العبرات تلوّ العبرات حتى ابتلت اثوابها من الدموع وشعرها
الجمدي مسرسل على كتفيها وظهرها ثم انحنى على أمها وقبلت وجنتيها الباردتين
قائلة « هل تشعرين يا والدتي العزيزة بالم شديد؟ »

فتطلعت اليها الام نظرة كلها انعطاف وحنان وقالت لها « يا اولغا ان
انفاسي معدودة وعمّا قليل سأترك هذه الديار الفانية وستكونين من بعدي وحيدة
شريدة لا معين لك الا الله فاتكلي عليه واستجيري به ساعة اليأس والقنوط
وهو يسد خطواتك ويظلك بجناحيه »

فاغرورقت عين اولغا بالمعبرات وقالت « خفني كريك يا والدتي الخنونة
ولا تسكلمي عن الموت فاني لا أطيق سماعه - كلا كلا انك لا تموتين - اني
انتشك من مخالب المنية ولا أتركك تموتين جوعاً ولو اضطرت للاستعطاء في
الأزقة والشوارع كأقفر المتسولات وها أنا عائدة اليك بعد هنيئة بالطعام » ثم
انبرت من الغرفة كالسهم المنطلق

فأخذت تسير هائمة على وجهها في الشوارع وعيناها لا تقعان الا على كل
ضئيل الجسم شاحب اللون فأثر العزم من شدة الحوار وهي آثار القحط والجوع
ولبثت على هذا المنوال تقطع شارعاً بعد شارع دون أدنى جدوى وهي تستعطي
من أقوام هم انفسهم أحق بالشفقة والرثاء حتى بلغت أخيراً طرفاً من الشارع كانت
واقفة فيه سيدة حسنة البرّة والوجه ويدها رغيف تطعم منه كلباً أمامها فنقدمت
اليها وسألتها كسرة فنظرت اليها السيدة شذراً وانتهرتها قائلة « أمثلك يعطى
رغيف كلبى؟ »

فجثت أولغا على ركبتيها وقالت لها « أستحلفك بالله أن تسمح لي بكسرة صغيرة فإن أمي على فراش الموت وهي في حال النزع من الجوع » فنظرت إليها السيدة نظرة الاحتقار والامتهان وقالت لها « موت أمك ليس بخسارة عظيمة على الكون »

فلم تثنى أولغا عليها السؤال بل وقفت من مجيها وقوف الظبي النافر وقد صبغ احمرار الخجل خديها بلون الجلتار ولكنها لم تسر رمية حجر حتى شعرت بيد كأنها من حديد ووضعت على كتفها وصوت أجش يقول لها « ماذا تفعلين هنا أيتها الشاردة ؟ » فالتفتت شقيقتي الى الورا فإذا الرجل رئيس بوليس البلدة فلما رأته امتقع لونها وقالت له « أتيت الى هنا للحصول على بلغة من العيش فإن أمي في حال الاحتضار »

- « إذا كان الامر كذلك فاني أنصحك أن تذهبي الى محافظ البلدة فإن لديه أموالاً تصرف في هذا السبيل بعثتها اليه الحكومة تخفيفاً لويلات المجاعة فاسرعي ولا تقفي لحظة واحدة » فأحنت شقيقتي رأسها له علامة الشكر وأسرعت جهده الطاقة لبلوغ المحافظة لأنها أدركت أن أنفاس والدمها معدودات بالدقائق فما ابتعدت عن رئيس الشرطة قليلاً حتى تبسم حبوراً وهو يقول في نفسه « ان صديقي المحافظ خبير بملاحم الجمال »

وكانت أولغا آية في الحسن طويلة القوام مشوقة القصد وردية الوجنتين جمعدية الشعر لا تتجاوز ثمانية عشر ربيعاً من العمر ولم يكن لها معرفة بالمحافظ سوى ما كان يسمع عنه من فضاظة الاخلاق والاستبداد بالرعية فان للحكام والمحافظين في روسيا سلطة مطلقة على العباد يتصرفون بهم وبشؤونهم تصرف المالك بملكه لا ينازعهم منازع ولا يردعهم رادع فكان المحافظ اذا أغضبه أحد أمر بجلده بأسواط يدمي وقعها الجلود فاذا اتفق أنه أمر بقتل أحد دون تعذيبه وجلده أولاً حسب ذلك منه منة ورحمة للعالمين - هذا هو الرجل الذي ذهبت اليه شقيقتي تستغيث به من مخالب المجاعة والموت

فلما مثلت أولغا بين يديه تأمل فيها لحظة تأمل الحيرة والذهول ثم صرف

الخادم وتوجه الى الباب فقفله ثم نظر اليها قائلاً « ماذا تريدن أيتها الابنة ؟ »
فانحنت أمامه باحترام وقالت « بعثني الى سعادتك رئيس الشرطة »
« اني أشكره لأنه انتقى لي فتاة كلها جمال فتان »
فأغضت أولغا الطرف عن أقواله وأفادته أنها إنما قدمت اليه تسأله شيئاً
من القوت سداً لرمق والدمها التي أصبحت على وشك الموت فنهض من مكانه
وأظهر لها شيئاً كثيراً من اللطف ثم طوق خصرها بيديه وقبلها أنيح لها التماس
منه شعرت بشفتيه على خدها الوردي فدعرت منه ذعراً شديداً وقالت له
« لو علمت ان الفتاة التي أمامك هي ابنة سرجيوس فلاديمير لما تجرأت على
كسر حرمة الادب أمامها ولكن الدهر قد أخنى علينا بكلكله وعضنا الجوع
بنابه فأرغمت على الحضور اليك وأنا على يقين أني في حضرة شهيم لا يرد مثل
هذا الطلب وخصوصاً لأن جلالة القيصر أبانا جميعنا قد بعث اليك بما فيه تخفيف
ويلات المجاعة »

فاحمر المحافظ خجلاً ورائت عليه الحدة فقال لها « المست ابنة ذلك النهيلستي
الذي تأمر على حياة مولاي القيصر وهو الآن في صحاري سيبيريا منفي يلقى
جزاء ما جنت يداه ؟ »

« ان هذا افك يا مولاي وما هو سوى وشاية كذب وبهتان قام بها اعداؤنا
حتى أنهم تمكنوا من ارسال والدي الى ارتسك دون ان يسمح له بالدفاع عن
نفسه »

« انجسرين ان تكلمي بمثل هذا عن عدل جلالة القيصر فان كلامك
يشهد عليك انك نفسك من عداد تلك الطغمة الشريرة » فارتاعت اولغا وحسبت
ان المحافظ يود ايقاعها في اشراك النهيلستية ويتخذ ذلك حجة على نفيها فأوجس
الحاكم خيفة من هذا الارتياح وحاول تسكين روعها فدنا منها وقال لها « اني
لا أود ان ألحقك بالدك » ثم انحنى نحوها وهمس في اذنها كلاماً نفرت منه نفوراً
شديداً وقالت « معاذ الله - ان الموت لأحب الي من مثل ذلك » ثم تملصت
منه في مثل غمض الجفن وتقدمت الى الباب ففتحته وخرجت لا تلوي على شيء

فاحتدم المحافظ غيظاً ولم ينبس ببنت شفة أما أولغا فأنها عادت الى الجولان
في الازقة والشوارع والمنعطفات ولبثت على هذا المنوال عدة ساعات تركض
وراء كسرة من الخبز وتستعطف العابرين وتستغيث بالمارين تطرق البيوت وهي
تسول دون أدنى طائل وأخيراً لما أعيبتها الحيل وسئمت ذل السؤال على غير
جدوى عادت الى البيت فوجدت أمها جثة لا حراك بها

ركمت أولغا بجانب جثة أمها وانحنى عليها تقبل وجهها وشفتيها ثم لجأت
طويلاً في البكاء وهي تنهد تنهد الشكلى ولما فرجت الدموع شيئاً من كربها
انتصبت على قدميها ورفعت يديها نحو السماء وقالت « اليك أشكوا يا مبدع
الاكوان وفاطر السموات والارض جور الناس واستبداد الحكام العتاة فقد
نفوا والدي الى اقاصي المعمور وقتلوا والدي بين يدي وهتكوا حرمة العذارى
وتركوني شريدة وحيدة لا ملجأ لي سواك ولا مغيث لي إلاك فان أخي بعيد
عني والنور أصبح ظلاماً في عيني فانتقم لي بنعمتك من الظالمين المستبدين وخذ
بناصري من الفجار والاقوياء وصب جامات انتقامك وسخطك على رؤوس
الحكام العتاة انك أبي وأمي وأخي »

وما أنت على ختام هذا المقال حتى سمعت وراءها وقع أقدام فاذا بالمحافظ
ملا كوف واقف وهو يضحك ضحك السخرية والهرزوة فنفرت منه شقيقي نفرة
الظبي الجريح وقالت له « أنت ههنا - ألا يتاح لي التماس منك؟ ما أتى بك الي؟ »
« لم يأت بي اليك سوى هيامي بك وشوقي الى لقياك » وهم بضمها الى صدره
« أبلغت بك القحة أن تتبعني الى غرفة الموت وتبدي لي حبك الممقوت
وتهين العذراء أمام جثة والديها؟ »

« أما حان لك الآن أن تدعني بعد هذا الجفاء؟ » قال ذلك ودنا منها ليطوق
خصرها بيديه

فانقلبت الظبية لبوة وتطير شرر الغضب من مقلتيها فدفعته يمينها وقالت
له « أيها الظالم ملا كوف الحاكم العاتي والنذل المستبدانك وأمثالك عار على
الانسانية والبلاد فانتم علة شقائنا وسبب خرابها والباعث على دمارها أنتم أنتم

الذين ترمون بها من حالق الى حضيض النذل والهوان وتأتون من المنكرات
ما يندى منه جبين الابد يد أنه ليأتين يوم سوف يرى فيه الظالمون أي
منقلب سينقلبون «

« اصمتي وإلا ندمت حيث لا ينفع ندم »

« أصمت وأنت تحاول أن تلحق بي العار والشنار؟ - أصمت وقد ضننت
عليّ بكسرة من الخبز لسد رمق أمي التي أصبحت الآن أمامك جثة باردة؟ -
انك أيها العاتي نذل مستبد تحاول انتهاك حرمة العذاري أمام أمهاتهن «
فتبهر الجبرال ملاكوف غيظاً وتقدم اليها ليضمها بين ذراعيه فحاولت التملص
على غير طائل ولما أعيته الخيلة صرخت بأعلى صوتها « الي يا أصحاب الشهامة »
فبادرها ملاكوف بضربة على فمها أدمته فأصابها على أثر ذلك دوار كادت تسقط
بسببه الى الأرض ولكنها وجدت من الوهن عزماً ومن الضعف قوة فعادت
الى العراك معه كلبوة في عرينها ولكن لم تلبث أن شعرت بخوار في عزمها واسترخاء
في أعضائها لشدة الاعياء فلقددم اليها ورفعها عن الأرض ليحملها الى الغرفة
المجاورة فلما علمت مراده عادت الى الجهاد والنضال وفي أثناء ذلك سقط من
ملاكوف الى الأرض مسدس لم يتنبه اليه الا بعد أن التقطته أولغا ولما حاول
اختطافه لم يكن الا كلعج البصر حتى أومض شهب تلاه صوت انفجار رهيب في
تلك الغرفة المظلمة استرخت بعدها يد ملاكوف ومشى الى الورا ليستند على
جدار الغرفة وهو يقول « أتطلقين مسدسي عليّ؟ » ثم علا وجهه الاصفرار
وسقط على الأرض منتبهك القوى والدم يجري من جرح في كتفه

ولم يكن جرح المحافظ خطراً لأنه بعد برهة يسيرة من الزمن تمكن من
النهوض على قدميه ثم أخرج آلة من جيبيه وصفر بها صغبراً عسكرياً ترا كضت
الى جبهته الشرطة من كل جانب فلما بلغوا الموضع التفت ملاكوف الى رئيسهم وقال
له « خذ هذه الابنة النهليستية الى السجن واحضرها صباح غد الى ساحة المدينة
حيث تجلد علناً سبعين جلدة أمام جمهور المدينة واياكم امانتها على عجل
بل أرجئوا الجلدة القاضية حتى تأتوا على نعمة العدد » فقيدت أولغا من

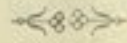
حيث كانت راكعة أمام جثة والدتها الى السجن الذي يُزج فيه القنلة والمجرمون
وكنت في مساء ذلك اليوم لم أزل في مدينته بطرسبرج أتشم أخبار عائلتي
فذهبت أولاً الى بيتنا الذي كان قصراً منيفاً ايام كان لا يزال والذي في قعس
مجده وصهوة عزه فوجدته مقفلاً خاوياً خالياً لا أنيس فيه ولا جليس فتذكرت
إذ ذلك زمن نعيي ورغدي وأيام سعادتي وهنأني وتفريست في تلك القاعة الباذخة
التي قاذني اليها والذي يوم تلقينا خبر مقتل قيصرنا المحبوب اسكندر الثاني حيث
أقسمت يمين الاخلاص لملالة ولده وأضعاً يسراي على صورته ورافعاً يميناي نحو
السماء و بينما كنت على هذه الحال دنا مني رجل لا أعرفه ولعله من رجال البوليس
السري وقال لي « أفقدت شيئاً يا رجل فاني أراك واقفاً وقوف شحيح ضاع في
الترب خاتمته ؟ » فأجبت « لقد فقدت يا مولاي أبي وأمي واختي وقصري
وأملأكي » فوضع الغريب يده على كتفي وناداني باسمي قائلاً « أنضحك
يا غورتشا كوف سرجيوس فلاديمير ألا تمكث يوماً واحداً في بطرسبرج لانه
متى وقع غضب القيصر على كبير أسرة وقعت جميعها تحت طائلة ذلك الغضب
ولولا ما يختلج في صدري من عاطفة الحنان والشفقة لأقيت عليك القبض قبل
أن تفوه بكلمة » ثم تركني وأنا في أشد الحيرة والذهول وذهب في طريقه
لا يلوي على شيء

ولما عاد اليّ رشدي بعد هذا الذهول همت على وجهي في شوارع تلك
المدينة العظيمة وتوجهت الى بيوت بعض أصدقائنا القدماء لعلني أقف على أثر
لوالدي وشقيقتي فأنكروني وأنكروا أبي قائلين انهم لا يعرفون في سائر الامبراطورية
الروسية رجالاً بهذا الاسم وكانوا يتعدون عني وينفرون مني نفورهم من المطعون
ولا غرابة في ذلك لان غضب القيصر اقل على من يحل به من كل داء عضال ولما
سئمت قرع أبواب الأغنياء والطبقة التي يسميها العالم خطأ بطبقة الشرفاء
سددت خطواتي نحو بيت حقير في أحياء العاصمة وهو بيت أحد خدامنا
الأقدمين فلما رأني الرجل كاد يطير فرحاً وأسرع اليّ يقبل يدي فقلت الحمد
لله لانه بقي في مدينة تبلغ مليونين من النفوس رجل لا يزال يعرف أسرة فلاديمير

فعلت منه موضع والدتي وشقيقتي وعرض الرجل عليّ أن يصحبني ويقوم على خدمتي فأبيت ونصحته أن يبقى الامر مكتوماً وألا يذكر أنه التقى بي أبداً ولم يكن سوى نصف ساعة من الزمن حتى كنت في القطار فبلغت البلدة صباح اليوم التالي وأخذت أسأل عن والدتي فلم يكن من يعرفها وبينما كنت سائراً في أنحاء البلدة أبصرت عن بعد جمهوراً غفيراً من الناس قد اجتمعوا في ساحة كبيرة فبلغت الموضع وسألت عن سبب هذا الاحتشاد فقبل لي ان المحافظ أمر بجلد ابنة نهلستية ولما صرت على مقربة من موضع الجلد بصرت بمنظر ينمطر له الجراد فأبني وجدت ابنة معرّة الى وسطها مربوطة بمعصمها وخلخالها الى قوائم من الخشب وصوتها يمزق كبد الجوز وهي تستغيث وما من مغيث وتستنجد وما من منجد والسوطي يضربها سوطاً بعد سوط حتى سالت دماً وها وأصبح جلدها وما تحته من العضلات كتلة من اللحم الدامي ولما تمرست بها لأرى من هي هذه المنكودة الحظ واذا بها شقيقتي أولغا

فلعبت في رأسي سورة الغضب وتقدمت الى السوطي واختلطت من يده تلك الآلة الجهنمية التي اذا لامست الجسم كانت بمثابة لدغات الأفاعي ولما سألته بأمر من يأثمرون في اتيان هذه المعرّة أجاب الرجل « بأمر المحافظ ممثل جلالة القيصر » وكان بين الأشياء التي أحملها سيف اهدانيه والذي لما أقسمت بحضرة يمين الاخلاص لامبراطوري فأخذت هذا السيف واستلته من غمده ووضعت على ركبتي وكسرتة ثم التفت الى الحاكم وقلت له « أشهدك وهذا الجمهور عليّ أني في حل من قسبي للملكي وحكومته » ولما حاولت التقدم لانقاذ شقيقتي اعترضني الحاكم فضربته بجمع يدي وكدت أخنقه لو لم نرا كض الشرطة لانقاذه فكوا قيود شقيقتي ووضعوني مكانها ثم انهالت عليّ الاسواط تمزق جسدي وهي شر من الحراب وبعد عدة جلادات أسالت دمي ومزقت ضلوعي فقدت البرشد وأصبحت في حال الغيبوبة ولما استيقنت وجدت نفسي في سجن كبير النقيت فيه مساء اليوم التالي بشقيقتي أولغا التي قصت عليّ ما أقص عليك فأقسمت في ذلك السجن لأنقم من نفسي وأسرني ولأضمن العدالة في

كفي لأقنص من أولئك الحكام العتاة والمردة الظلام ما بقى في رفق من الحياة
وكان ذلك ما حداني أن أصير نهاستياً



الفصل الثاني

« سيبريا الرهيبة »

و بعد بضعة أيام نقلوني الى السجن الشهير المعروف بسجن بطرس وبولص في
مدينة بطرسبورج ذلك السجن الرهيب الذي نهاره ظلام دامس وحره برد قارس
وآمال ساكنيه يأس وقنوط وأفراحهم ندب وورثاء هناك تجسم لك الشقاء حتى
تكاد تمسه باناملك وتسمعه بأذنك وتبصره بعينك وكأن الله غضب على البشر
لا يجادهم جحياً على الارض فحول وجهه عنه ولقد بقيت بضعة أسابيع في هذا
الجحيم الارضي بين جراح لم تبرأ وستم لم يشف وظلام دامس وهو اجس مترامة
كادت تذهب بعقلي ورشدي حتى انه لما دخل علي السجن يوماً ما وأفادني أن
قد قضى علي بالنفي الى اقاصي مناجم سيبريا التي الحياة فيها موت والراحة شقاء
تلقيت هذا الخبر بملء الارتياح كأنه بشرى أنزلت على قلبي المن والسوى
وما انتصف ذلك الليل حتى أيقظوني ورفاقي التعساء لنكون على أهبة السفر
فبلغ عددنا في ساحة ذلك السجن الرهيب نحواً من مائتي منفي من رجال ونساء
وكان لوقع الاغلال في أرجلنا رنة تنفر منها المسامع وتنقبض القلوب فألبسونا
ثياباً رمادية اللون ووضعوا على رؤوسنا قبعات من جلود الماعز وفي أرجلنا أحذية
كبيرة تبلغ الركبة وعلى ظهر كل منا بساط خشن طيه صحن من المعدن وملعقة
خشبية وفي صدره قطعة نحاسية عليها نمرة فعلقوا اغلالنا في وسطنا وربطونا
الى بعضنا وسرنا على هذا المنوال ثبعنا عر بانات من الخشب الصلب لوقع أصواتها
دوي في الآفاق أشبه بهزيم الرعد وسط هدو الليل فكان ذلك أول مرحلة لنا
نحو ذلك القبر الفسيح الارجاء المترامي الاطراف سيبريا الرهيبة

فسرنا باسم الله مجرانا بين عصف الرياح وثوران الزوابع وسقوط الامطار
ووميض البروق ولعلمة الرعود وسط ذلك الليل الدامس يتقدمنا فريق من الحراس
يحملون بأيديهم المشاعل اذا تكلم أحدنا وقعت عليه السياط عقارب لذاعة تنهش
منا الضلوع قبل الجلود فاضطررنا الى ملازمة الصمت التام وقد قرسنا البرد وتبلت
ثيابنا من تساقط الامطار والتلوج ولما لم يكن مأذون لنا بالمحادثة كان كلامنا
تنهدات وزفرات بعضها تلو بعض فتطلعت الى العلاء لأرى هل السماء ناظرة
الينا فرأيت ان الله قد سدل بيننا وبينه حجاباً كثيفاً من الغيوم المترابكة بعضها
فوق بعض حتى لا تندعر ملائكته من هذا المشهد الذي تنهلع له القلوب اذا وقع
عليه بصرها ورأت جور الانسان على الانسان

هبطت بي التصورات من صور الخيال الى عالم الحقيقة فوجدت نفسي سائراً
مع رفاق الشقاء وقد قضى عليّ بالنفي المؤبد مع الاشغال الشاقة دون أن يلفظ
القضاء كلمته بشأني لأنني لم أحكم قط بل كان الحكم نتيجة استبداد ذلك العاتي
ملاكوف الذي حاول انتهاك حرمة شقيقي ووضعني تحت السياط لأنّ أخاً رام
انقاذ أخته وهي معرأة تجلد والدم يسيل من جراحها تلك الأخت التي لم أعلم
ما حلّ بها فضلاً عن ان والدتي قد لقيت منيتها وأبي نفي الى أقاصي مناجم
سبيريا ذلك الجحيم الذي لا فرق بينه وبين جحيم الآخرة سوى أن نار ذلك
من لهب ونار هذا من ثلوج

فلبثنا على هذا المتوال نصل السير بالسرى ونحن نقطع مفاوز وقفاراً من
الثلوج المنبسطة أمامنا لا يسمع وسط ذلك الهدوء من صوت سوى وقع أقدامنا
على الثلج الكثيف وما زلنا على هذا الطراز حتى قطعنا مئات من الاميال وكنا
اذا سرنا بضعة أيام وصلنا الى مييت مبني على قارعة الطريق لهذا الغرض وهو
مؤلف من غرفة واحدة كلها أوساخ وأقذار وقد وضعونا فيها أكداساً بعضنا على
بعض وكان كلما قطعنا قفاراً من الثلوج تبدت لنا قفار أعظم اتساعاً وأشدّ هولاً
وأقرس برداً

وبعد مسير عدة أسابيع بلغنا أخيراً الحد الفاصل بين روسيا أوربا وسبيريا

آسيا حيث أقيم هنا لك بناءً مستطيل الشكل على هيئة مسلة مصرية تبعه احد جوانبه نحو روسيا والآخر نحو سيبريا فوقفنا عنده ردها من الزمن تتنفس الصعداء ونودع بلاد أهي أعز لدينا من أرواحنا وهناك رأيت منظرًا تنفطر له المرائر لأنه لما أزفت ساعة الرحيل علا العويل وضجيج النحيب بين رفاقي من الرجال والنساء فكان بعضهم يركع أمام الجهة الأوربية منه يذرفون الدموع وبعض السيدات اللواتي أصبحن بعد مشاق السفر أشباحاً لأجسوماً يتقدمن اليه ويقبلانه بحرارة وزفرات كادت تذيب تلك الثلوج والبعض منا حفروا الثلج والنقطوا قبضة من تراب الأرض والآخرون يرفعون أيديهم نحو السماء كأنهم يستغيثون بها ولكن من يسمع فان الله بعيد عنا على منصة مجده في أعالي السموات وجلالة القيصر جالس على عرش عظمته في أقاصي البلاد

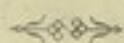
ولم يكن سوى هنيئة من الزمن حتى انقطعت أصوات النحيب والعويل وعدنا الى سكون الموت وكنا كلما خطونا بضعة خطوات نلتفت الى الوراء لنشاهد هذا النصب الذي شاهد من ويلات الجنس البشري وبلاياه وكوارثه وخطوبه ما لم يشاهده بناء قط في سائر أنحاء الكرة الأرضية بأسرها وعدنا الى مواصلة السير نقطع البيد والتفار حتى مرت علينا الأيام والأسابيع والشهور ونحن على مثل هذه الحال التعيسة ولا فائدة هنا من سرد أسماء البلدان التي مررنا عليها لانها غريبة الألفاظ على سماع الاجنبي وليس لها شيء من الشهرة في عالم التمدن

غير أنه لا بد لي من وصف موضع واحد لا يزال رسمه راسخاً في مخيلتي لأن البلايا التي احقت بنا هناك بلغت حدًا فاحشاً تنزل بالانسان الى أقصى دركات التوحش والبهيمية حتى أننا نحن الذين ركبنا هذا المركب الحشن وقاسينا من الأهوال السالفة ما تندك له الجبال الراسيات رأينا أن سائر ما حل بنا من الرزايا قبل بلوغنا الموضع المشار اليه ليس شيئاً مذكوراً فاننا لما بلغنا توبولسك آخر محطة من هذه المراحل المتناثية أنزلونا في خان فسيح ضاق على رحبه بسكانه فانه لم يكن فيه سوى غرفة واحدة تتصاعد منها الروائح المنتنة تصاعد الدخان من الاتون فلما دخلناه وجدناه غاصاً بالمفهبين الذين تقدمونا الى ديار الشقاء

وكان بما فيه من الاقدار لا يصلح أن يكون حظيرة للمواشي والبهائم والالانكي
من ذلك أن اكثر ساكنيه كانوا مصابين بالحمى التيفوسية وكثير منهم في حال
النزع ووجدنا عند وصولنا جثتين من جثث أولئك المنكودي الحظ مطروحتين على
الارض بجانب الاعلاء الذين بقي فيهم رفق من الحياة وقد بدأ التعفن فيها
لان الرائحة التي كانت تنبعث منها لا تطاق وليس من أحد يجسر على التذمر
أو ابداء كلمة واحدة بهذا الشأن لأن مثل هذه الجرأة ذنب جزاؤه أفاعي السياط
هذا هو الموضع الذي بلغناه تجديداً لقوانا من انتهاك الأعضاء وفرط الاعياء
فزلنا فيه ونحن ننظر الى بعضنا ولا نجسر ان ننسب بينت شفة وكانت ثيابنا
ممزقة وأحذيتنا مقطعة وأعضاءنا مشلولة من الاعياء والجوع قد أخذ منا مأخذه
لأنه لم يكن لدينا من الأكل سوى النزر القليل والطريقة التي كانوا يجرون عليها في
تفريقه غريبة في بابها وذلك ان الحراس يدخلون بالأرغفة السوداء ويطرحونها
على الأرض فكان المنفيون يترأضون لالتقاطها تراكض الكلاب ويتخاطفونها
تخاطف الذئب على حين ان بين نساء فرقتنا عدد من السيدات ربات المجال
ومخدرات القصور يباهي نسب أسرهن الثريا سموأبل كن في قومهن أميرات
خطرات النسيم تجرح خدودهن ولمس الحرير يدمي بناهن حكم عليهن بالنفي
بحجة أمهن من طغمة النهيلست ولا ذنب لمن سوى أمهن وقعن تحت طائلة غضب
حاكم من الحكماء لذنب يشبه ذنب شقيقتي أولغا فاني أعلم علم اليقين أنه قضى
على واحدة منهن بالنفي لأنها رفضت الاقتران بحاكم فحقد عليها ووشى بها وشاية
أوردتها هذه الحالة التي هي شر من الحمام وكانت نفوس أولئك السيدات تكبر
عن التقاط العيش على هذا المنوال وبعضهن يعجزن عن ذلك لضعف في البنية
ولا سيما أثناء ذلك العراك الهائل الذي كان ينشأ أثناء اختطاف الطعام فيضطرون
الى البقاء زمناً طويلاً وهن جائعات خائرات فكنت التفت ما يتاح لي الوصول
اليه وأقدمه لمن

وما لبثنا في هذا المقام سوى زمن قصير حتى أصبحت الحياة علينا حملاً
ليس في طاقة الطبيعة البشرية حمله فحشونا على ركبتنا وتضرعنا الى الله بحجارة

ونحن نقرع صدورنا قرعاً شديداً وتوسلنا اليه أن يعاملنا بحلمه وفضله وغزارة شفقتة ويعجل في حفتنا لأن الذل قد بلغ منا مبلغاً لم ننجراً معه أن نطلب اعادتنا الى بلادنا إذ حسبنا أن هذا الطلب حتى لو كان سرّاً الى مبدع الكائنات ذنب لا يغتفر وأمنية ليس الى بلوغها من سبيل والظاهر أنه بقي الله أذن تسمع إذ أصيب في اليوم التالي نفر من عدادنا بالحمل وقضوا نحبيهم وفي جملةهم بعض السيدات المشار اليهن وأصبحوا أحراراً الا تبلغهم ذرة من جور الانسان فسد منا الاحياء الاموات وتطلعت الى السماء قائلاً ربّ والهي الى متى



الفصل الثالث

« تيهان سحيق »

كان الموضع الذي بلغناه المرحلة الاخيرة من هذا السفر البعيد الشقة غير أنه لما كنت في عداد أشقى المجرمين الذين يعيشون في الارض قتلاً وفساداً صدر الامر بابعادي الى أقصى مجاهل سيبيريا فودعت رفاق الشقاء وداعاً لأمل بعده باللقاء ونقلوني الى فرقي الجديدة وما بزغ فجر اليوم الذي ضرب موعد السفر حتى كنا جميعاً على أهبة المسير الى مناجم كارا وهي أقصى تلك الشقة وأكثرها هولاً حيث يصرف المنفيون حياتهم في نفق تحت الارض لا يبلغ فيه العامل شيء من شعاع الشمس أو الامل وكان لا يزال عليّ اللباس الذي تردته في روسيا أوربا وقد أصبح خرقاً بالياً بعد سفر نيف وأربعة أشهر فربطوا سلاسلنا بعضها الى بعض وجروا بنا يسوقوننا الى حفتنا سوق النعام

فتوالت علينا الايام والليالي ومرّت الاسابيع والشهور مرّة السنين تطلنا سماء لا تبصر وتقلنا أرض لا تشفق . تطلع الشمس على وجوه منا شاحبة وتعرب على قلوب منقبضة ويسدل الليل حجابيه على يأس وقووط ونعمض أجفاننا على ذلة وشقاء تتخذ الثلج فراشاً والريح غطاءً وبعد أن قطعنا هذه المسافات المترامية

الابعاد حلوا الوثق التي تربط سلاسلنا بعضها الى بعض وسمحوا لنا أن نمشي
زرافات ولبثنا نواصل السير على طريق أركوتسك المتناثية الأطراف
وبعد مسيرة أربعة أشهر من توبولسك وثمانية أشهر من بطرسبرج بلغنا
مناجم كارا الرهيبية حيث سلمنا الحراس الى محافظ تلك الناحية التي تخيلنا عند
وصولنا اليها أنها منتهى العالم فاسترحنا يوماً واحداً من عناء الاعياء ثم أخذونا
في اليوم التالي الى تلك المناجم المظلمة التي ترتقص لهولها الفرائص وتهلع القلوب
فأدخلونا في دهليز عميق تحت الارض كله برد قارس ورطوبة قتالة وصمت
رهيب فكان نفسي يتجلد على شاربني وعلى ذقني بلورات من الجليد ثم أعطونا
أدوات العمل فلما دخلت هذه المناجم اول مرة استولى عليّ يأس شديد لا أقدر
أن أصفه وظننت نفسي اني في حلم أو اني انتقلت الى دار الابدية والآب
أعذب في الجحيم البارد ومن حولي الأبالسة يعذبونني تارة باللعنة وطوراً بالسياط
ولكن لما رأيت غيري أيضاً في هذا الجحيم تعزيت قليلاً وأخذت أشتغل مع
هؤلاء المجرمين الذين نصفهم من أسفل طبقة الهيئة الاجتماعية سفكاً ودم وقتلة
ولصوص والصف الآخر من أسماهم تهديياً وأشدهم تنوراً ولطفاً وأرقام ادراكاً
وعقلاً وهم الذين يطلق عليهم لقب المجرمين السياسيين فالآراء الحرة في روسيا
كالقتل كلاهما ذنبٌ عظيم لا يغفر

فكنا نقضي نهارنا بالأشغال الشاقة والاعمال في أرجلنا والأدوات في
أيدينا فإذا انتصف النهار رموا الينا كسرة من الخبز نأكلها ونحن ننظر الى بعضنا
لانفوه بكلمة ومتى جن الليل أخرجونا الى حظائرنا لأننا أصبحنا حيوانات
داجنة نبيت فيها حتى الفجر ثم نعود الى المناجم دون ان يتاح لنا رؤية الشمس أو
شيء من شعاعها ولو وددت وصف ما حاق بنا من البلايا والرزايالاقضى
لذلك مجلد برمته

ولم يطل بي الوقت حتى أخذت أميز بين القتلة والمجرمين السياسيين لأن
دمانة هؤلاء وتآديهم في المقال وطلاوة حديثهم واحتمالهم هذه المشاق بالصبر
وهم رابطو الجأش كانت دلالة واضحة على مكانتهم في الهيئة الاجتماعية ونبالة

مقاصدهم السياسية وكان بين عداد هذا الفريق رجل أحنى الكبر صعدهته وبيّض
لمته أظهر نحوي انعطافاً كثيراً ومودة فائقة يشدد عزمي عند الخوار ويشجعني
عند اليأس ولما تعارفنا في المرة الأولى نظر اليّ وقال « هل سرجيوس فلاديمير
من ذوي قرباك؟ » فقلت « هو أبي يا مولاي أتعرف شيئاً عنه؟ » فترطبت
عينا الرجل بالعبرات وأطرق برأسه الى الأرض دون أن يفوه بكلمة قط فهاج
ذلك هواجسي وامسكت بكلمات ذراعيه قائلاً له « أستحلفك بالله العلي العظيم أن
تصدقني الخبر - أين التقيت بالدي وماذا تعرف عنه؟ »

فأرسل اليّ الرجل نظرة كلها شفقة وحنان وقال « اذا كان لا بد من معرفة
ذلك فأنا أخبرك : ان أباك كان من جملة رفاقي يوم ودّعنا بطرسبرج منفيين الى هذه
الاصقاع فعلمت منه في أثناء الطريق أن بعض أعدائه وحساده قد وشوا به الى
جلالة القيصر أنه من أصحاب الدسائس السياسية وهو لا يعلم شيئاً من ذلك حتى
مساء يوم بينما كان الناس مدعوين الى ليلة راقصة عنده والأ نغام الموسيقية تشنف
الأذان والناس بين جنل وطرب اذ دخل على حين فجأة نفر من ضباط البوليس
وألقوا القبض على والدك فانقلب سرور القوم الى أراح ثم قيد دون محاكمة وأرسل الى
قلعة بطرس و بولص حيث صدر بعد ذلك الامر بنفيه الى مناجم سيبيريا المظلمة
فكنا من رفاق السفر تشاطر الأحران والرزايا وبقينا نحواً من ثمانية أشهر
حتى بلغنا هذا الفردوس الذي نحن فيه الآن وكان يوماً بهزٌ بكرك ويسأل
الله أن يبقيك عوناً لأمك وشقيقتك وهو يظن أنك في مأمن من جور الحكام
الطغاة ولكنه لم يلبث بعد بلوغه هذه المناجم أن اعترته علة أودت بحياته ففضى
وتخلص من العذاب الذي لانزال نحن فيه ولقد سلمني قبل وفاته كتاباً مختوماً
طلب مني قبل تسليمه اليّ أن أقسم له الايمان المغلظة ألا أفتحه بل أبعث به
اليك مع أحد الحراس الذي أظهر عطفاً عليه وها هو لا يزال الآن في جيبي
فتعزّ لأن الله قد عامله بشفقته فنصر عذابه ونقله الى دار الأبدية حيث لا تبلغه
أسن الوشاة ولا أيدي الظلام »

وبعد أن قصّ عليّ هذه المفاجعة أخرج من جيبي محفظة فيها الكتاب

المشار اليه ثم سلمني أيضاً خاتم والذي قبلته والدموع تساقط على وجنتي تساقط
الطل فلما فتحت الكتاب قرأت فيه ما يأتي

فلذة كبدي غورتشا كوف

أحررك يا بني هذه الأسطر من دار الغربة والشقاء وأنفاسي معدودة
بالدقائق لأن أجلي قد دنا وبعد هزيمة أبرح هذا العالم عالم الشقاء وأتخلص من
مشقات النفي ومناجم الجحيم ولا بد أن يكون قد بلغك ما حلّ بي من ضروب
النكال وعوامل الجور لو شايات لفقت زوراً وبهتاناً فلقد وقع عليّ غضب
مولاي القيصر وسخطه واني سررت بان قد وقع عليّ ذلك وأنت بعيد عني لا
تصل اليك أيدي البغاة واعلم أن لي في مصرف صديق صدوق في موسكو يسمى
تريبولوف لازنسكي خمسين مليون روبل موضوعة باسمك لا يعلم بها أحد وسوف
ترى الرجل شهماً غيوراً أبي النفس فاذهب اليه واستلم هذه النقود وكن سعيداً
ووالدتك وشقيقتك واني أستودعك الله»
والدك المحب

سرجيوس فلاديمير

وبعد مطالعة الكتاب شكرت الرجل بعيون مملوؤها الدموع وقلت له «ألا
تعرف مدفنه؟» قال «لا أزال أتذكر البقعة» فأشار اليها وكانت داخل منطقة الحرس
فسرنا اليها ولما بلغت ركعت على الأرض وصليت الى الله بحرارة ودموع وناجيت
نفس والذي في قبره وهناك نذرت نذراً رهيباً اني لا نثقن لأبي ويني نقمة
تحدث بذكرها الركبان

ولما طفح السيل حتى جاوز الرابي وزهقت الروح حتى بلغت الترقوة عقدت
النية على الهرب ولو كان بذلك حتمي ولكن اني للعنفيين في سيبيريا الهرب
والاغلال في أرجلهم والحراس صفوف حولهم والشقة مترامية البعد وكلما التقيت
برجل من القوزاق طلب منك جوازك وحدق فيه يبصر حديد وان فرار العصفور
من قفص محكم الصنع لا سهل بكثير من فرار سجين سيبيريا

ولبثت في هذه المناجم سنتين من الزمن وأنا كلما جال في خاطري الفرار
رأيت سجنياً أشد أحكاماً وحراسي أكثر عدداً و بطرسبرج ابعده مني فالأخير أنه

حدث أن الحكماء اكتشفوا مناجم جديدة فيما وراء كارا ولما كنت في عداد أشقى المجرمين وقعت عليّ القرعة مع بعض رفاق بالتوجه الى هذه المناجم الحديثة العهد فصحونا في فجر ذات يوم فربطوا اغلالنا بعضها الى بعض وأخذنا نقطع البيد والقفار وبعد مسيرة عدة أسابيع حلوا العري التي تربط سلاسل الفرقة وسمحوا لنا بالمسير أفواجا بين الحراس حتى أمسينا ذات ليلة بجانب حرج كثيف من الأشجار المشتبك بعضها ببعض فبزلنا للبيت وكانت هذه أول فرصة تسنح بالهرب فعقدت العزم وصممت على القيام بذلك دون التبصر في ما يترتب على ذلك من الأهوال والأخطار

وكان الليل حالكا جدا والبرد قارسا والرياح تهب هبوب العواصف والليل رهيبا حولنا يسمع وسطه حفيف الاشجار الذي كان في آذاني أنعاما شجية فصبرت الى أن انتصف الليل وسكنت كل حركة ونام ساثر رفاقي فلم يبق صوت من يسمع وكانت ظهور الحراس الينا وأوجههم الى الفضاء فعلمت أن قد دنت تلك الساعة الرهيبة التي يتوقف عليها اما حربي أو حتى فاصطبرت قليلا ريثما أخذ التعب من الحراس مأخذه فرأيتهم يترنحون على بنادقهم نرح السكران من فرط الاعياء فوقفت على قدمي بكل تأن وربطت سلسلي في منتصف وسطي من الامام حتى لا يسمع لها صوت وجريت كالسهم المنطلق وسط ذلك الظلام الدامس نحو الحرج الذي لم يكن بعيدا عنا أكثر من رمية حجر فلم يكن سوى مثل غمض الجفن حتى أدركته وأنا لا أوي على شيء ولا التفت ورائي لأرى هل ابصرني الحراس أم لا بل ثم لبثت راكضا جهدا الطاقة وسط تلك الاشجار الباسقة والانجم الكشيفة على خط مستقيم نحو ساعة من الزمن وقفت بعدها دقيقة أتففس الصعداء ثم واصلت المسير لا أعطف يمينا أو شمالا وظللت كذلك وأنا أجد في المسير الى أن تبلج وجه الصباح وظهرت الغزاة في الأفق تلقي أشعتها الذهبية على تلك الارحاء العجيبة وعند ذلك خرجت من تلك الغابة الكشيفة ووجدت نفسي على مقربة من بيت منفرد فطرقت الباب فلم يكن من مجيب فدفعته بشدة فانفتح أمامي ولما دخلت الغرفة وجدت منظرا رهيبا تقبضت أعضائي لرؤيته فان الوضع

كان مهجوراً لا أنيس فيه ولا جليس وعلى الأرض جثة رجل ميت فدنوت منه وهززه بيدي فلم يبد حراكاً فوضعت أصابعي على قلبه فلم يكن هنالك من حركة قط فتفترست فيه فاذا الرجل ميت منذ بضع دقائق فقط لأن ملامسه لم يزل سخناً وامامه رق فيه هذه الكلمات

« لا فائدة من احضار الطبيب لأنك عند ما تعود اليّ أكون قد فارقت هذه الحياة فأستحلفك بالله أن ترسل الاوراق التي في جيبى مع رسول أمين
مرسكي لو بانوف »

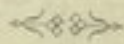
فتفتشت في جيوب الرجل ومنطقته فوجدت أوراقاً مالية بقيمة ألفي روبل وثلاثة كتب مختومة جميعها بخاتم القيصر ومعنونة باسم الجنرال الترسكي حاكم مديرية كوليمسك في نواحي القطب الشمالي من مقاطعة باكونسك حيث هنالك فريق من المنفيين ووجدت أيضاً جوازاً باسم « مرسكي لو بانوف رسول من جلالة القيصر في مهمة دولية الى حاكم كوليمسك » فلم أتردد لمظفة في الخطة التي صممت الجري عليها فمزقت أولاً الرق الذي كان أمام لو بانوف ثم قشيت في المنزل فأتيت لي العثور على مبرد تمكنت به من برد الاغلال التي كانت في رجلي ثم خلعت ثيابي ووضعتها في النار التي كانت في الموقد ثم جردت الميت من ملابسه الرسمية ووضعتها عليّ وتمنطقت بمنطقته التي تتضمن الاوراق المالية والكتب الرسمية مع مسدسه وذهبت الى الاسطبل حيث كان فرس الرسول فأسرجته في مثل غمض الجفن وعلوت صهونه واتخذت الوجهة المطلوبة قبل أن يعود صاحب المنزل ولم يكن سوى بضع دقائق حتى التقيت على الطريق بفرسان منتشرين في نواحي ذلك الحرج وما حوله من الغلوات يركضون بخيولهم الى كل جانب فلما رأني أحدهم عمل المهاز في شاكلة الجواد ودنا اليّ وقد أدى التحية العسكرية وسألني اذا كنت قد التقيت أثناء الطريق بأحد المسجونين الذي قد فرّ منهم خلس الليل الماضي فأجبتني أنني كنت نازلاً في جوار هذا المنزل ولم أشاهد أحداً قط فتراجع عني وقد انقسم ورفاقه فرقاً في أنحاء مختلفة وسرت في طريقي وأنا أضحك في نفسي من غرائب الاتفاق

وقد رأيت أنه لا بد لي من الذهاب الى كويلمسك لان الجواز الذي
بيدي باسم لو بانوف موقع عليه في كل محطة من المحطات الرسمية بامضاء الحاكم
مع التاريخ فاذا عدتُ توّاً الى بطرسبرج اكتشف الحكام دخيلة الامر لأنه لم
يكن قد مرّ الوقت اللازم لوصولي الى الموضع المشار اليه والعودة منه فذهبت
أقطع الجبال والثلوج الي أن بلغت المقاطعة المطلوبة بعد مسيرة شهرين ودخلت
كويلمسك وهي بلدة مؤلفة من أكراخ حقيرة المظهر والبرد فيها شديد الى درجة
قصوى اذ الدرجات تتراوح هناك بين ست فوق الصفر وثلاثين تحته والشتاء
يبتدى في اغسطس ولا ينتهي حتى شهر مايو والأغذية قليلة جداً واذا قام المسافر
اليها من روسيا أوربالا يبالغها الا بعد مرور سنة ونصف من المسير المستمر
وكان وصولي الى كويلمسك بشري نزلت على قلوب أهلها نزول المن والسلوى
لأن الكتب المحتومة بخاتم القيصر من بطرسبرج كانت كما كنت أنتظر أوامر بالعفو
عن كثيرين من المجرمين السياسيين في تلك الأصقاع فلما انتشر هذا الخبر
أقيمت الأفراح والاحتفالات وتبدت لوائح البشرى على أوجه القوم فكنت
أنى ذهبت وكيف سرت بحملوتي على الاكف وييجلوتي وييجوتني تحية المرؤوس
لرئيسه وأنا أضحك سرا وأقول في نفسي مكره اخاك لا بطل
فاضطرت للاقامة في هذا الموضع عدة أيام الى أن يكون الحاكم قد أنجز
تقاريره الرسمية الى بطرسبرج ولكنه اعتراني أخيراً ضجر شديد وخشيت
انكشاف أمري فلقد مدت صباح ذات يوم الى الحاكم ورجوته أن يحرر اللازم
على جوازي لاني قاصد الذهاب بضعة أيام الى موضع في جوار البلدة لكي أرى
صديقاً لم أره منذ أعوام فطرت فرحاً لما أجاب الحاكم سؤلتي وامضى جوازي
بخاتمته فما صدقت أن استلمته حتى علوت صهوة جوادي وأخذت أجد في السير
قاطعاً الفيافي المقفرة والجبال الشائخة والادوية العميقة وأنا أظن أنني معجل في
نيل أميتي الوحيدة وهي حربتي ولم أعلم أنني في ذلك كمن كان يسعى الى حتفه
بظلفه ولما أنضى المسير جوادي مات من شدة الاعياء بعد سفر جاوز شهرين
من الزمن فاضطرت الى المشي على الأقدام على شوايح الجبال الغير المطروقة

أقنات بالأعشاب وأوراق الأشجار حتى براني السير وأعياني السغب وكدت
أموت جوعاً وأعياء ولكن بارقة الرجاء أحييت مني ميت الآمال إذ بلغت ذات
يوم قنة جبل رأيت من شامخ ذراها أمواج الاقيانوس الباسفيكي تتمعج تحت
أشعة الشمس كدوب اللجين

ولما بلغت الساحل مساء وجدت هناك مدينة على جانبه تسمى بأرو باو فلو سوك
وشاهدت عند مدخلها مركباً راسياً في جوارها فسألت عنه فقيل لي هو مركب
صيد من كندا فعقدت النية على بلوغه وركوبه ولكن علمت أنه لا يسافر الا في
صباح اليوم التالي فصممت على البقاء تلك الليلة في البلدة والتوجه الى مركب في
الصباح التالي وبعد أن سرت برهة في أسواقها وجدت أحد أنفار البوليس
السري يتقفي أترني ولم يدري في خلدي ان الأسلاك البرقية قد حملت اخباري
الى هذه الاصقاع المتناثية فرأيت الخطة المثلثي أن اتوجه بنفسي الى رئيس الشرطة
واريه جوازي حتى اذهب بكل مظنة عن نفسي فلما دخلت عليه وجدته وحده
جالساً منفرداً في غرفة فأخرجت جوازي وقدمته اليه فلما وقعت عينه عليه تبسم
تبسم السخرية وتطلع اليّ قائلاً « ان رسول جلاله القيصر لو بانوف قد توفي ولذلك
التي الآن القبض عليك » فلم يتم هذه الكلمة حتى خفق فؤادي وعلتني صفرة
الوجل واصطلكت ركبتي وقلت في نفسي أهذه نتيجة اسفاري ومشقاتي وعذابي
أن يقبض عليّ في ذات اللحظة التي ظننت نفسي فيها حراً فلم يثن رئيس الشرطة
كلمته التي فاه بها حتى انطلقت كوميض البرق من غرفته وما بلغت الباب الخارجي
حتى سمعت وقع الأقدام ورائي وكان قد جن الليل وأرخت الظلام ستاره فهمت
على وجهي في الأزقة والشوارع حتى بلغت أخيراً موضعاً رأيت فيه قارباً مربوطاً
الى شجرة فلم يكن سوى لحظة من الزمن حتى قطعت حبله فحملني التيار الى ما بين
أشجار ملتفة فوق وأعشاب سترتي عن العيون فسمعت ورائي جلبة القوم وصراخهم
بل كادوا يبلعون نخبائي ولكن الظلام والأشجار كانت لي ستاراً كثيفاً فلبثوا
على هذا المنوال نحو ساعتين من الزمن رجعوا بعدهما بخفي حينين ولما أيقنت
ان لم يبق هنالك من خوف عليّ أخرجت قاربي من وسط تلك الاجام الكثيفة

وأخذت أجدف بكل ما بقي فيّ من العزم الخائر حتى بلغت المركب فصعدت
إليه وشرحت لربانه حقيقة أمري وقصصت عليه شقائي ومداتي فرق لي وعطف
عليّ وجعلني في عداد قومه ولم ينتظر حتى طلوع الصباح بل أمر بالمسير بعد
وصولي إليه بساعة من الزمن ولما أخذت السفينة تشق عباب الأمواج ورأيت
بأرو باو فلوسك تبتعد عني تدريجاً تنفست الصعداء وشعرت بسعادة ونعيم لم أشعر
بها قط في ماضي أيامي لأنني قد أصبحت حرّاً وبعد سفر نحو شهر من الزمن
نزلت في فيكتوريا من فانكوفر حيث بلغت بعدها بلاد الانكايز حيث الحرية
ترفف بأجنحتها كمالك الرحمة



الفصل الرابع

« مرتع البغي وخيم »

قليل من الناس من يعلم أن مدينة لندرا أعظم مدائن العالم المتهدن وأكثرها
احتشاداً بالسكان وأعظمها علماً وأسماها مدنية وأوسعها حرية وأبذلها مجداً
هي أعظم مركز لأعظم جمعية ثورية في سائر أنحاء المعمور فإن في قلبها أكبر
عظما، ثوروي النيبيلست ونخبة رجالهم وجملة شبانهم وأشرف أسرهم يضمهم أكبر
نوادي الثورة إذا انتظموا فيه عمداً أخرجوا هنالك من تصورات الخيال إلى
عالم الحقيقة من جراءة الأقدام والاستقلال في سبيل الحرية ما تهزله الملوك على
عروشها وتملع قلوب الأبطال والقواد بين جيوشها وتحدث بمعجزاته الجرائد
وتسطر من هوله الأقلام ما لو وقع على جبل لتصدع من خشيته. هنا السلطة
السامية التي حيرت العالم بمعجزات أعمالها وقصرت كل سلطة عن بلوغها لأنها
لا تعرفها وعجزت الأسننة عن طعنها لأنها لا تبلغها. هنا تدور المناقشات السياسية
والمباحثات الفوضوية تحت أستار الدجى في ليل مدلم بالظلمات فإذا ما انتهي
كل ذلك وانتصب الرئيس على منصبه وأصدر حكمه بالاعدام أو التدمير أو

الارهاب كان القضاء المبرم ليس له من رادع او انقضا صاعقة ليس الى
انقائها من سبيل

الى هذا النادي الرهيب سددت خطواتي وفي يدي كتاب توصية من أحد
العمال الثورويين الذين أتاح لي الحظ لقيامهم في فكتوريا فلما علم الرئيس بول
بتروف حكايته والمصائب التي حلت بأسرتي والمشاق التي ركبها قبل بلوغني
لندرا تقدم اليّ وصاحفني وأنزلي في ذلك النادي على الرحب والسعة وضمم
جراحي بيلسم العزاء وأغدق عليّ احسانه اغداق الامير الكريم

وكان أول أمر وجهت اليه المهمة بعد الاستراحة من عناء السفر الحصول
على المال الكثير الذي كان قد أودعه والذي في مصرف لازنسكي ذلك الرجل
الذي وصفه والذي في رقيمه لي بالشهم الكريم الاخلاق النادر المثال فبعثت
اليه بكتاب أخبره بحقيقة الامر وأرجوه فيه أن يرسل المال نحو يلاً على بنك
انكلترا ولبثت أنتظر الجواب وبعد انتظار على أحر من الجمر وردني الجواب كما يأتي
« عزيزي الموسيو غورتشا كوف فلاديهير »

وردني كتابك وفيه تدعى وجود مال في مصرفي نيف وخمسين مليون روبل
وضعها والدك باسمك فعمجبت من ذلك كل العجب اذ لا معرفة سابقة لي بأبيك
ولم يوجد بيني وبينه شيء من المعاملة على الاطلاق ثم أخبرك أن رأس مال
المصرف كله لا يبلغ مليون روبل فأنصحك في الحتام أن تنسى مثل هذه الاحلام
واقبل احتراماتي

خادمكم المطيع
لازنسكي

لي الشرف ياسيدي أن اكون

فما طالعت حتى صار النور في عيني ظلاماً وشعرت كأن ناراً تحرق وجنتي
واعتراني قبض شديد من فرط الغيظ فخرقت عليه الأرم ولبثت في حال الذهول
نحو ساعة من الزمن ولما عاد اليّ رشدي شعرت أن لا طاقة لي على شيء فان
الأوراق المالية التي كانت في يد والذي فقدت بعد القاء القبض عليه ومصادرة
بيته وأملاكه حتى أنه لو ثبت وجود المبلغ المذكور لوقع في يد الحكومة الروسية

اذ آتني من المغضوب عليهم والضالين
ولما سكنت مني سورة الغضب رأيت أن أحرر الى لازنسكي كتاباً آخر
ضمنته ما ذكر لي والذي بشأنه من ديانة الأخلاق وسمو السجايا واخلاص
المودة ورجوته أن يبعث لي بشي من المال في الحاضر فكان جوابه على ذلك
ألا اعود الى مخاطبته بهذا الصدد لأن وقته أئمن من الاشتغال والرد على آمال
فارغة وقصور في الهواء.

ولما أعتني الخيلة توجهت ذات ليلة الى نادي الثورة وهي الليلة المعينة لاجتماع
أكبر رجالها وأصحاب الكلمة النافذة بين سائر طغمة النهليست فوجدت النادي
غاصاً بالقوم فبعد أن أنجزوا ما امامهم من المهام انتصبت وقصصت عليهم أمري
مع لازنسكي وانكاره المال الذي لي ضمنه وقيمه خمسون مليون روبل فلما أتيت
على نعمة المقال حدث صمت رهيب في ذلك النادي الكبير ورجمني القوم بالاحداق
حتى كدت أسمع نبضات قلبي وأخذ الاعضاء ينظرون الى بعضهم وعليهم لوائح المايعة
والذهول لأنهم لم يروا حتى الآن في عدادهم رجلاً يمثل هذا الاثراء العظيم
واكبروا خيانة الرجل لازنسكي وعلموا أن بين عدادهم الآن رجلاً يهز بماله روسيا
من اقصائها الى اقصائها ثم تلى ذلك غوغاء ومناقشات طويلة قر قرار الرئيس في
ختامها على أمرين أولهما الاستخبار من مركز جمعية الثورة في موسكو عن حقيقة
هذا الادعاء ومعرفة رأس مال مصرف لازنسكي

فلم يمر على هذه الجلسة سوى شهر واحد حتى ورد كتاب رئيس الجمعية في
موسكو وفيه يقول أن تقارير جواسيس الجمعية أسفرت عن أن والذي سرجيوس
فلاديمير كان شريكاً في مصرف لازنسكي وأن رأس مال هذا المصرف بين
عقارات وأوراق مالية ونقود لا يقل عن مائة وعشرين مليون روبل

ولما ورد هذا الجواب دعى الرئيس الأعضاء الى جلسة فوق العادة تقرر
فيها أن يطلب من لازنسكي باسم عمال الثورة المبلغ المشار اليه فاذا أبى يهدد فاذا
أصر يهرب بالديناميت فاذا بقي مصرّاً يحكم عليه بالاعدام وتؤخذ نفس هذه
الوسائل لتحصيل المال من ابنه ووريثه وبعد هذا التفت الي الرئيس وقال لي

« ياغورتشا كون سرجيوس فلاديمير كن معلمنا »
ومضى على هذا القرار عدة أسابيع التقيت أثناءها مراراً بالرئيس بروف
فلم أفاتحه بشيء من هذا القبيل ولا هو ذكر لي شيئاً كأنه لم يحدث ذلك
الامر الجلل بيدانه وردتني ذات يوم جريدة النوفي فريميا كالعادة ولما فتحتها
طلعت في احد أعدادها ما يأتي

« خطب جلال ! »

« تلقى المصرف الشهير في موسكو المعروف بمصرف لازنسكي انذاراً من
أحد أعضاء النهلست يطلب فيه مبلغاً طائلاً من النقود فاذا أبي برهب بالديناميت
فاذا بقي مصرراً يقتل بعد اسبوع فسلم لازنسكي هذه الأوراق الى ادارة البوليس
ولكن مع كل الاحتياطات التي اتخذتها الادارة نسف بناء المصرف ليلاً
بالديناميت كما أتينا على بيانه في الاعداد الماضية حتى اضطر صاحبه أن ينقله منذ
اسبوع الى جانب ادارة مركز البوليس التي اتخذت احتياطات أشد وأقوى من
ذي قبل لأن نغراً من البوليس كان حراساً على الابواب الخارجية بينا أن عدداً
من البوليس السري كان على الدوام داخل البناء ولكن كل هذه الاحتياطات
لم تغن شيئاً فانه نحو الساعة الحادية عشر هذا الصباح بينا كان عمال المصرف
يقومون بأشغالهم سمع صوت دوي هائل في غرفة صاحب المصرف وانفجار عظيم
تهدمت به سائر جدران المنزل وتعطل كثير من المنازل المجاورة لأن الاهتزازات
بلغت آخر الشارع وقتل خمسة من العمال وجرح اثنا عشر أما لازنسكي السبي
البخت فان جثته تطايرت في الفضاء ولم يعثر منها الا على بعض أعضاء منشورة
وقد استولى الهلع على سائر مصارف موسكو وكثير منها أقفلت عند سماع هذا الخبر
الرهيب ويظن أن اليد التي اقترفت هذه الجريمة الفظيعة هي أحد العمال أنفسهم
إذ أنه منذ نحو خمسة أيام دخل عامل جديد من أمهر الكتبة والخبيرين بالمصارف
الى مصرف لازنسكي وقام باعباء أشغاله على غاية الدقة والانتظام حتى أعجب
به سائر المستخدمين وقد شوهد صباح هذا النهار داخل وفي يده محفظة كبيرة

و بعد أن لبث حتى الساعة العاشرة ونصف صباحاً استأذن بالانصراف لغرض ما
وحتى الآن لم يعد واذا لم يتخذ البوليس احتياطات أشد مما عودنا عليها لا يمر
حين من الزمن حتى تصبح موسكو فوضى لا نظام لها وخصوصاً لأنه قد ورد
على ابن الفقيد بعد ظهر اليوم انذار شبيه بالانذارات التي وردت من قبل على والده»
و بعد اسبوعين من الزمن طلب الاعضاء العاملون الى حضور جلسة خاصة
لم يذكر موضوعها في رقايع الدعوة فلما انتظم عقد النادي وأنجز الأعضاء ما تأخر
من الأعمال والقرارات الهامة في الجلسة السابقة وقف الرئيس وقال بكل هدوء
وسكينة « ليتقدم الى هذه المنصة أحدكم غورنشا كوف سرجيوس فلاديمير »
فعلت وجهي صفرة الوجع واصططكت ركبتي من الجزع خوف وشاية بي فلحظ
الرئيس وتبسم تبسم الوقار دون أن يفوه بكلمة فخرت الى المنصة كمن يجري
الى حتفه لأنه كان يبلغني روايات غريبة عن اغتيال النهاست بعضاً من الاعضاء
الذين يشتبهون بصدقهم واخلاصهم ولما بلغت المنصة وقف الرئيس وقال « أهنتك
يا عزيزي غورنشا كوف لكونك قد أصبحت رجلاً تبلغ ثروته خمسين مليون روبل
ثم وضع في يدي رقاً فاذا هو حوالة باسمي من ابن لازنسكي على مصرف انكلترا
بالقيمة المذكورة فلما طالعت اعترتني دهشة شديدة وارتعاش عظيم في أعصابي
من شدة الجذل ثم التفت الى الرئيس وقلت له « لا أشكرك على هذا الصنيع
العظيم بل أقول لك أنه سيكون صباح غد في مصرف انكلترا خمسون مليون
روبل تنفقها جمعية الثورة في السبيل الذي تراه موافقاً لاصلاح روسيا » فحصل
أولاً بين الاعضاء سكوت تام كأن على رؤوسهم الطير ثم تلى ذلك ضجيج
استحسان اهتزت له ارجاء ذلك النادي الرهيب ثم تقدموا اليّ يقبلوني ويحملوني
على الاكف

الفصل الخامس

« وقع السهام ونزعن اليم »

لبث بضعة أسابيع وأنا في نادي الثورة لا عمل لي سوى التعرف بأعضاء الجمعية والتجول في أنحاء العاصمة لاختبار طبائع أهلها ومعرفة أحيائها وكان ذلك سهلاً عليّ لأنني تعلمت اللغة الانكليزية والفرنساوية منذ نعومة اظفاري فضجرت أخيراً من البطالة وتقدمت الى الرئيس بتروف وسألته أن يكافني بالقيام بخدمة ما فتبسم وقال لي ان سائر الخدمات التي يقوم بها أعضاءنا محفوفة بالمشقات والمخاطر وانها قد تفضي أحياناً الى حتفهم فأجبتته أنني عالم بكل ذلك ومستعد لكل بلية لأنني وقفت نفسي على أن آخذ بثأر أبي وأمي وشقيقتي وان قد اعتراني الآن الضجر والملل حتى كدت أعاف الحياة فتطلع اليّ نظرة كلها إعجاب وهزكتني قائلاً « يا غورتشا كوف ان امامك مستقبلاً مجيداً فانك من بيت عريق في نسبه كبير في حسبه وافر في ثروته وقد رأيناك عنوان الاخلاص والمروءة والشهامة وستصير بعد قليل زعيم عصاية النهلست الأعظم يأتي امرامك ألوف من البشر وتغنو لحكمك رقاب الأمراء والحكام اذا أصدرت أمراً في هذا النادي كان صاعقة على أعدائك فيحل بهم الوبال دون أن يشعروا من أين يأتي واعلم أنه لا يوجد الا ثلاثة من البشر لهم السيادة المطلقة في الكون وهم قيصر روسيا ورئيس الجزويت وزعيم النهلست بيدانه لا بد لك من الصبر والتمرن على العمل والوقوف على الدخائل وسهر طباع البشر حتى تصير أهلاً لهذا المركز الخطير الذي تخلفني فيه بعد ذهابي الى روسيا لغرض سوف تقف عليه في حينه » فشكرته وقلت أنني سأكون له أطوع من بنانه

وحدث بعد هذا بيضعة أسابيع أن الجمعية عهدت اليّ أول عمل خطير وتفصيل ذلك أن جمعيتنا في لندرا انتخبت واحداً من عدادنا يسمى ايقان غريغوروفتش للذهاب الى بطرسبرج حاملاً تعليمات سرية الى مركزنا في

عاصمة روسيا فغير اسمه وادعى انه تاجر فرنساوي يحمل جوازاً فرنساوياً وزيادة في كتمان الأمر لم يسر على الطريق العادية بين لندرا و بطرسبرج ولكنه توجه اولاً عن طريق البحر الى اودسا على عزم متابعة السفر من هناك الى بطرسبرج ولكن الرجل اخفق سعياً وذلك ان وردت على بوليس اودسا السري افادات من احد الافراد الخونه ينبئه بحقيقة الأمر فلم يكده غريغوروقش يبلغ اودسا حتى اتى البوليس السري القبض عليه مع ما معه من الأوراق السرية التي فيها تفاصيل مكيدة جديدة وبسبب ذلك اتى القبض على ثلاثة وعشرين شخصاً في بطرسبرج من الرجال والسيدات فحوكوا سرّاً وحكم عليهم بالأشغال الشاقة المؤبدة في سيبيريا وتبين من التفاصيل التي وردتنا بعد ذلك ومن مطالعة جريدة النوفوستي الروسية الشهيرة ان الذي افشى سرايقان غريغوروقش الى البوليس هو البرنيس كار يوف وعليه عقدت لجنة الجمعية العاملة وعددهم خمس جلسة وحكموا على البرنيس بالاعدام وطريقة انتخاب العضو الذي يناط به هذه المهمة تكون بالقرعة فووقت القرعة هذه النوبة عليّ

وكان الأعضاء يتكلمون عن القتل والاعدام بسكون وتبسم كأنها أمراً عادياً ولا بد لي من الاقرار اني شعرت أولاً بشيء من التردد والتوقف فلحظ ذلك الأعضاء وأفادوني ان وشاية هذه المرأة قد سببت نفي عشرين شخصاً من اخواننا الابرياء وانه لا بُد من اعدامها ولما كنت قد أقسمت عند دخولي في زمرة النهلست أن أقوم بسائر ما تكلفني به الجمعية من الأعمال والا كان جزائي الإعدام رأيت نفسي مضطراً الى القيام بأوامرهم

وبعد نقصي أخبار البرنيس علمت انها قد حضرت منذ عهد قريب الى لندرا حيث استأجرت منزلاً جميلاً في احد احيائها فراقبتها ذات ليلة حتى اذا ما دخلت لحضور الاوبرا دخلت وراءها وجلست بجانبها وكان ذلك اول مرة شاهدتها عن قرب فاذا هي سيدة بالغة نحواً من خمس وعشرين سنة من العمر ردينية القوام بارعة الجمال لها عينان سوداويان تنفثان السحر الحلال وشعر حالك كالليل ذات جبين واضح ووجنتين هما الورد في غضاضته وذراعاها واعلى صدرها

عار يشف عن يياض كالعاج وفي عنقها عقد متأق من الالماس وهي لابسة رداءً
اسود وعلى ملامحها شيء من الانكسار والاسى وبعد التأمل فيها وجدتها اجمل
امرأة وقعت عيني عليها في حياتي - هذه هي الاميرة التي قضى علي أن اذيقها
كأس الحمام بيدي !

فلبث انظر اليها وانا في حال اشبه بالذهول

وبعد قليل وقعت عينها علي فلما شاهدتني محققاً بها علت خدودها حمرة
الحجل وأخذت تطالع رقعة بيان الرواية التي كانت موضوع التشخيص تلك الليلة
ولما انتهى الفصل الأول منها وقفت للخروج الى القاعة الفسيحة للتدخين فررت
بجانبها واعتذرت اليها عن مروري باللغة الروسية فردت إلي اعتذاري بأحسن
منه بذات اللغة وهي تبسم تبسم اللطف

وقد علمت من التنقيب السابق ان الاميرة هي البرنسس كاريفوف وان حياتها
بعد الزواج أصبحت حملاً ثقيلاً عليها لما حصل من الشقاق بينها وبين زوجها
فلم يمر على زواجها سنة واحدة حتى افترقا فبقى زوجها في روسيا اما
البرنسس فكانت تصرف وقتها بين بطرسبرج وباريس ولندرا وقد تبين
بعد وصولها الى لندرا انها حضرت اليها في مهمة سياسية للحكومة الروسية ولم
يمر زمن حتى تعرفت بكثير من كهراء القوم ونخبة افرادهم واصبح لها مقام عزيز
في الهيئة الاجتماعية فكانت موضوعاً لاخبار الجرائد وحديث القوم فراقبتها عدة ايام
حتى اتت هذه الليلة الاوبرا فتبعتها على امل ان اتعرف بها ولما انتهى التشخيص
النفث نحوها وقلت بكل تأدب بالروسية « اراك يا مولاتي وحدك هنا فهل
تسمحين لي ان احضر لك عجلتك ؟ »

فأجابتنني بالانكليزية « أشكرك أيها المولى وسترى خادمي بانتظارى خارجاً
وهو لابس ثوباً أحمر »

« ما هو الابهم الذي أذكره له »

« البرنسس كاريفوف »

ثم التفتت اليّ وقالت « أرانا من وطن واحد اليس الأمر كذلك يا مولاي »

فأجبتها « بلى ياسيدي وان الروسي يسر على الدوام بمشاهدة مواطنيه في
الغربة » ثم أخرجت من جيبي رقعة الزيارة باسم جورجوقش ملاكوف وسلمتها لياها
وبعد بضع دقائق عدت وأحضرتها الى العجلة فشكرتني وجرت كالسهام
المنطلق لا تلوي على شي

وفي أثناء الاسبوع التالي اجتمعت بها عدة مرار فرأيت منها ظرفاً ولطفاً
عظيمين ودعيتني للذهاب اليها فقبلت ذلك بالامتنان ولم يمض علينا سوى قليل من
الزمن حتى أصبحنا صديقين حميمين ولا بد لي من الاقرار اني همت بحبها
وغرامها فكانت تعجلى لي كأنها شعلة من نور وصوتها أنغام شجية تهتز لوقعها أوتار
القلوب وعواطف النفوس غير أنني لما علمت شرف أسرتها وسامي مقامها اعتراني
اليأس والقنوط وعلمت أن هذا النسيم سيفضي بي الي أوحش العواقب وبينما كنت
جالساً معها ذات يوم وحديثها يقطر شهداً وضعت يدي الي صدري فشعرت
بالآلة التي كنت قد خبأتها هناك لكي أغتال هذا الملاك فأشعر جسدي واستولى
عليّ الجزع والارتعاش كما انتفض المصفرور بلله القطر.

وكانت عيناها إذ ذاك تنظران من النافذة التي أمامنا الي جنائن الاشجار
الجميلة والزهور البديعة وجمال الطبيعة فالتفتت اليّ لفنة الغزال الشارد وقالت « مالك
يا مولاي فاني أراك صامتاً » فلم أجبها ولكن انتصبت على قدمي وأخذت يدها
وقبلتها وأنا لا أدري ما أنا فاعل ثم تدفقت كلمات الغرام من في تدفق السيل
فارتجفت أعضاؤها وأسرع تنفسها ولكنها لم تجذب يدها مني وحاولت اخفاء
ما يخالج صدرها من عوامل الحب فلم تستطع ثم التفتت اليّ وقالت « لم أكن أظن
يا فلاديمير إنك تحبني أما أنا فقد أحببتك حباً شديداً أحاول اخفائه فيضطرم
في صدري واتقد كانت حياتي في ما سلف سلسلة أحزان وأسى وانك هو الرجل
الوحيد الذي أحبته مدى عمري »

فدهشت لمقالها وقلت لها « أحقيق اني أخطر أحياناً في خاطرک يا مولاي

الاميرة ؟ »

فتبسمت وقالت « لا تدعني مولانك الاميرة بل ايرين وسيأتي يوم تعلم به

قدر الاميرة التي هي الآن أمامك واخلصها لك لأنك لا تعرف غني الآن شيئاً سوى ما تمليه عليك عواطف الحب والغرام ولكن سوف ترى قدر حبي لك وشدة تعلقي بك وشرف خصالي وصفاتي وعسى ألا يمر زمن طويل حتى أتمكن من الحصول على حكم الطلاق من الأمير كلاريوف ثم تنزوج ونعيش معاً على الرغد والسعادة أما أنت فلا أسألك شيئاً عن ماضيك أو تفصيل أحوالك واعلم اني أكون على الدوام مخصصة لك ولودك » ثم أسندت رأسها بين كفيها ولجست في البكاء.

ولما عادت الى نفسها قالت « لا تقدر الآن على الشعور بما أشعر به من التعاسة والشقاء لأنك لا تعلم مرارة حياتي »
« لا يا ايرين فقصي علي شيئاً من أخبارك »

جلست على كرسي مريح وأومات لي أن أجلس على كرسي آخر بجانبها فقلت « كلاً فإنه لا يحلو لي الجلوس إلا عند موطني قدميك فلا أجلس إلا هنا » فانطرحت عند قدميها ثم شرعت تقص علي حكايتها فقالت لي « ان حياتي قد ذهبت ضياعاً وكانت أمي فرنساوية المحتد وأبي في عداد أعضاء الثوري في روسيا فصرفت أوائل حياتي في موسكو ثم بعد ذلك في البلاط القيصري في بطرسبرج ولقد أكرهني والدي على الاقتران بالبرنس وهو كما تعلم وافر الثروة واسع الجاه ولكنه لم يمر على زواجنا سوى بضعة أشهر حتى أخذ يسي معاملتي حتى كانت تدفعه الحدة أحياناً الى ضربني ضرباً مبرحاً ولا تزال آثار هذا الضرب في جسدي حتى الآن وفوق ذلك فإنه عشق ابنة فرنساوية من بنات الرقص والحلاعة فصبرت على جوره ما استطعت الى هذا من سبيل ولما بلغت الروح التراقي وخشيت على حياتي من القتل هجرته وحضرت الى هنا »
فاحتدمت غيظاً وقلت لها « أيمكن أن يبلغ توحشه هذا الحد ؟ »

فتنهدت وأبكت حديثها قائلة « ولم يكتف الا مير بذلك بل حاول تطبيق منه وعاونه على ذلك نفر من أصدقائه تظاهر أحدهم بودي وغرامي لكي يكون ذلك حجة للأ مير علي في الطلاق فأرجعته بخفي حنين لأنني لم أفعل بعد زواجي شيئاً

قط يكون مأخذاً عليّ ومع اني أحبك الآن وأودك كثيراً فإنه لم يجر بيننا ما يحق للأمبر معه الطلاق فعفت الحياة وهجرت الوطن وأخذت آراوح في الإقامة بين باريز ولندن وأنا وحيدة شريفة لا صديق يمنع الضيم عني ولا أليف أشكو اليه أمري »

وقبل أن تم حديثها قاطعتها وقلت لها « ان امامك صديق يفديك بدم قلبه » فألوت عليّ وقبلتني وقالت « صرفت حياتي في ما سلف بين الشقاء والعبوات ولكن أشعر الآن بنعيم وسعادة لا أقدر على وصفها »
« اني أكاد أظير جذلاً وسروراً مما نقولين وسنعيش معاً على الحظ والنعيم لا يفرق بيننا مفرق ولا يثني حبنا بشر »
« ماذا أو من يقدر على تفريقنا فاننا كلينا في حب وغرام وعندي من النقود ما يفي بسائر حاجتنا »

فعاد في تلك اللحظة الى خاطري ذكر الخنجر الذي خبأته في ثوبي والذي أعدده ليخترق قلبها فذعرت وارتجفت أعضائي ارتجافاً شديداً ولكنها لم تترك لي مجالاً للانتظار فقالت « اني لك وانت لي وبعد قليل تزوج ونعيش على عل الدوام في النعيم الذي نحن عليه الآن »
وكانت الشمس قد غربت وأرخت الليل سجوف الظلام فوقفت وانحنيت عليها أقبليها وبينما أنا كذلك اذا بالخادمة قد دخلت فلما رأني كذلك ذعرت واعتذرت قائلة « اعذريني يا مولاتي فاني ظننت انك قد انطلقت »
فأجابتها الاميرة « لا يا نينا اني سأبقى الليلة هنا واخبري الخادم أن الموسيو ملاكوف سيبقى هنا للعشاء »

ثم أضأت الخادمة المصاييح وانطلقت من الغرفة فتطلعت الى وجه الاميرة واذا به يتدفق جمالاً وسروراً فخطر على بالي حينئذ خاطر جهنمي وهو لماذا لا أنجز الآن العمل الذي أتيت لأجمله الى هنا وأغدخنجري في قلبها وهي في ابان السعادة وأوج النعيم فان ذلك لخبير من الانتظار وخصوصاً لأنني اذا أحثت بقسمي للنهبيلست واخلفت وعدي لهم كان جزائي الاعدام وكنت أيضاً تلى يتبين أن

الأميرة لا تجو من مخالبتهم فاستلقت خنجري وهممت بقتلها فلم تطاوعني يدي على ارتكاب هذه الجريمة الاثيمة فاعدت الآلة الى نصابها وقد علتني صفرة الوجل ثم عدت الى مجلسي على الكرسي الصغير الذي كنت جالساً عليه عند قدمي الأميرة وعدنا الى ثمة أحاديث العشق والغرام

وبعد اسبوعين من الزمن وصلتني رقعة من لجنة الثورة يدعوتني بها الى الحضور فلما مثلت بين أيديهم ورأيت ما على ملامحهم من الحزم وثبات الجأش اعتراني ذهول فسألني الرئيس بروف وقال « وجدناك متردد في قتل الأميرة كار يوف فما سبب ذلك ؟ »

« يلزم - يلزم يا مولاي وقت لذلك »

« قد مضى عليك الآن ثلاثة أشهر ولم تفجز شيئاً وقد علمنا أنك وقعت في أشراكها ولكن أعلم أنها لن تجو منا ولو كان حولها أسوار من الرجال والسيوف ثم انه لا بد لي من أن اذكرك انك قد أقسمت بين أيدينا قسماً رهيباً تفخيم عليك القيام به فقد أصدرنا على الأميرة حكم الاعدام فلا بد لك من انفاذه ونحن لا نزال نثق بك ولكن اعلم أنك اذا لم تقم به حلت عليك نعمة رجال الثورة وأنت أدري ما معنى ذلك فاذهب وكن رجلاً »

فخرجت من حضرة اللجنة هائماً على وجهي في أسواق لندرا وأزقتها وأنا أفكر في مهرب يكون منه نجاة الأميرة فلم أر شيئاً من بارق الأمل لان حكم الاعدام صدر من اللجنة العاملة ويعلم سائر الناس أن الجمعية لم تصدر حتى الآن حكماً على رجل تمكن بعده ان يجو من مخالباها وبعد أن لبثت هائماً عدة ساعات وجدت نفسي نحو الساعة العاشرة مساءً بجانب بيت حبيبتى الأميرة وأنا لا أعني شيئاً فدخلته حتى بلغت غرفة الجلوس وهي لا تشمر بي فرأيتها جالسة ويدها رواية تطالها وكانت لابسة ثوباً من الحرير البرتقالي والجمال يتألق في جبينها تألق النور فلما رأيتي طربت وقالت « أهذا أنت يا ملاكوف لقد انتظرتك النهار طوله حتى أعياني الصبر وبتح بي الانتظار » فدنوت منها وقبلتها ثم جلست لأفوه بكلمة فتفرست في وجهي ولما شاهدت ما عليه من الاصفرار والأسى وما على

توبي من لطخ الأوجال انذهلت وقالت « أعليل أنت - اني أستحلفك بالله
ان تصدقني أمرك فان أراك شاحب اللون منقبض الصدر أعرتك علة ؟
فحاولت الابتسام وقلت لها « اني أشعر باعيا يزول عما قليل »
ثم جلسنا نتجاذب أطراف الحديث وأنا لا ادري ما اسمع أو اقول الى ان
شعرت اخيراً انها لمست يدي ووضعتها على وجهها - تلك اليد التي ستجرعها بعد
بضع دقائق كاس الحمام فلم أطق أن تفعل ذلك فحذبت يدي بعنف منها فتعجبت
من ذلك وقالت « أظنك عليلاً يا ملاكوف » فأجبتها « اني على غاية ما أتمنى من
الصحة ولكن افراقنا هو علة شقائي » فقالت « أنتكلم عن الإفراق فلا يفرق بيننا
إلا الموت » وطوقت عنقي بيديها وهي تقبلي قبلة الحب والإخلاص فشعرت
بارتعاش شديد في جسدي ووقفت من موضعي آتمشي في الغرفة من جانب الى
جانب وبعد قليل التفت اليها وقلت

« أيتها الأميرة اني نذلٌ جبان فلقد خدعتك »

« ماذا تقول ؟ ألا تحبني يا ملاكوف »

« انك اعز لدي من حياتي ولكن أقسمت على قتلك »

« أنقتلني أنا يا ملاكوف - أنقتل المرأة التي تحبك أكثر من نفسها ؟

إني أرى فيك مساً من الجنون »

« بلى ان في مساً من الجنون لأنني أحببت المرأة التي ساجرعها كاس

الحمام من يدي ولا بُد لي من قتلك فاني نهيلستي »

ولما سمعت هذه اللفظة اصفر وجهها وارتجفت أعضاؤها وتراجعت عنى الى

الوراء وهي تكاد يعمي عليها ثم أخذت تكرر اللفظة « نهيلستي ! نهيلستي ! »

« بلى اني نهيلستي ولقد وشيت بنا الى البوليس في روسيا وشاية أوردت

عشرين نفرًا من اخواننا منقاهم في سيبيريا ولقد حكمت عليك اللجنة بالموت

وستنالينه هذه الدقيقة » وما أتيت على نعمة ذلك حتى استلكت خنجري وقبضت

على معصمها

فاهتزت الاميرة اهتزازاً شديداً وبدا بريق الانذهال في عينيها وصاحت

« ان هذا مين وكذب من المنافقين الذين يرمون بي الى التهاكئة - أمانتي بذلك تلك المقالة التي نشرتها جريدة النوفوستي فالله يعلم اني بريئة من كل ذلك ولكنها دسيسة من زوجي فانه لما لم يتمكن من طلاقني كما أخبرتك قبلا عمد الى الدسائس السياسية فرشى بعضا من القوم حتى أشاعوا عنى هذه الأكاذيب وفي عدادهم الكاتب المذكور والغرض من كل ذلك ان تحصل عليّ تقمة النيبياست حيث يكون جزائي الموت »

« أبريئة اذا أنت ؟ »

« اني أقسم لك بكل ما هو مقدس اني بريئة من هذه التهمة ولما جرت محاكمة الذين تشير اليهم من أعضاء النهلست كنت وقتئذ مع الارشيدوقه بول في أودسا وأنا على جهل تام مما جرى حتى بلغني أمر المقالة في الجريدة المشار اليها فبعثت اليها كاذب الخبر تكذيباً قاطعاً فلم ينشر وما ذلك الا لدسائس الامير كار يوف »

« أصدق كل كلمة مما تقولين ولكن اني لي أن أتفذك من مخالب المنية فان الحكم قد صدر عليك بالاعدام وأنا مرتبط بقسم لانفاذ هذا الحكم »
« اني بريئة ولكن اذا كان لا بد لك من اعدامي فأرجوك أن تمهاني شيئاً من الزمن أستعد به للموت »

« كم تطلين ؟ »

« نحواً من ثلاثة أيام »

« حسن - اني أمنحك هذه الامنية » ثم ودعتها منصرفاً

وفي مساء اليوم الثالث سددت خطواتي نحو بيت الأميرة فالتقيت بالخدام وقلت له

« الأميرة في البيت ؟ »

فدرفت دموعه وقال « ويلاه يا مولاي فانها قد ماتت ! »

فأجبتة مندهلاً « أماتت الأميرة ومتى كان ذلك ؟ »

فتهد وقال « لقد اغتالها يا سيدي يد الاشقياء فانها قتلت قتلاً ولم

أكتشف على ذلك الآ منذ نحو ساعتين فقط فجزيت أستحضر الطبيب وهاهو الآن في غرفتها مع البوليس »

فأسرعت الى الغرفة حيث سمعت أصوات القوم فوجدتها كبيرة مظلمة لا ينها سوى شمعتين وجثة الأميرة موسدة على سرير بجانب النافذة وملفوفة بغطاء من الكشمير وصدرها ملطخ بالدم فلم أحفل بالقوم بل دخلت ووقفت بجانب الرمة ولما تطلعت فيها هالتي ذلك المنظر الرهيب فان وجهها كان مشوهاً بالجراح ومنظره مخيفاً فكادت أسقط الى الارض من شدة الملح وتجلدت ولبثت واقفاً ثم رأيت في يد أحدهم آلة قاطعة يحرق بصره فيها بجانب النور ولما تأملت فيها ارتعشت ساثر أعصابي فانها كانت خنجري الذي وضعه في يدي رئيس اللجنة لاغتيال الأميرة فوضعت يدي في جيبى فلم أجد سوى غمد الآلة أما الآلة نفسها فلم تكن هناك فعلمت إذ ذاك أنها قتلت بالخنجر الذي كان لي فأخذ البوليس اسمي المنتحل وعنوان موضعي إذ قال انه لا بد لي من تأدية شهادة امام المحكمة وبعد ان انصرف القوم سألت الخادم عن تفصيل الأمر فقال لي ان الاميرة كانت عازمة على التوجه الى باريس صباح الغد وانها أرسلت وصيفتها قبلها الى هناك لتعد لها الغرف اللازمة لنزلها فيها ثم انه نحو الساعة الخامسة سمع قفل الباب فاستنتج ان سيده قد خرجت من المنزل ثم بعد نحو ساعتين من الزمن دخل الى الغرفة فوجد الأميرة جثة لا حراك بها وفي مساء اليوم التالي عقدت اللجنة العاملة جلسة خاصة فذهبت الى هناك لأقدم تقريراً بشأن ما حصل قياماً بالواجب علي لا لافادة جديدة لأن أعمدة الجرائد كانت ملأى بخبر هذا الاغتيال الذي كان سرّاً من الاسرار

ولما بلغت النادي التفت الى الرئيس بتروف وقلت

« إن الاميرة قد قتلت يا مولاي »

فقال « اذا كان الامر كذلك فاشكر أخانا ارتانوف الذي قام بهذه المهمة »

فتطلعت حولي مندهلاً واذا بالقاتل جالس بجانبى على كرسي ويداه مسندتان

عليها فنظر الى الرجل وقال « فعلت ذلك اكراماً لك لأنني اعلم الصعوبة التي

كانت تحب بك إذ انه يتعذر على العاشق قتل عشيقته فأحببت مساعدتك
في الأمر»

وبعد ذلك دُعيت لتأدية الشهادة مرتين امام المحكمة وبعد اطالة البحث
على غير جدوى صدر الحكم بأن الاميرة قتلت بيد جان غير معروف ثم بعثوا نبأ
بهذا الصدد الى زوجها الأمير فلم يهتم بشيء من الأمر ولما دفنت الاميرة لم
يكن في جنازتها سواي والخادم ايفان خادمها أما البوليس فلبث مواصلاً البحث
والتنقيب دون أن يتاح له الحصول على حل هذا اللغز المعسى

وبعد نحو شهر من الزمن وصلتني يوماً رقعة من الخادم ايفان المشار اليه يطلب
بها منى أن أوافيه ليلاً تحت كبري إحدى المحطات في العاصمة فذهبت في الوقت
المعين ظاناً ان هنالك أمراً جليلاً يجب مفاتحتي بشأنه وكان موضع الاجتماع
مظلماً ولا يمر فيه سوى قليل من الناس وبينما كنت واقفاً في الموضع المشار اليه
أنتظر الرجل واذا بيد مستني وصوت سيدة تناديني باسمي فالتفت فرأيت سيدة
مرتدية رداء السفر وعلى وجهها برقع كثيف فرفته قليلاً ولما نظرت اليها كاد يقضى
علي من الدهول لأن المرأة التي كانت واقفة أمامي لم تكن سوى الاميرة
كاربوف!

فقدمت اليها وأنا أكاد يغمى علي من الجذل وقلت لها «أهذه أنت يا ايرين؟»
فقلت «نعم ولا تظني خيالاً الآ أنه لا بد لي من التكر حتى لا يراني أحد
فلنذهب من هنا» ثم أسدلت برقعها الكثيف مرة أخرى على وجهها
فانطلقنا نحو أشجار غضة بجانب النهر ولما خلونا تطلمت الي ايرين وقالت
«لا تنذهل مما جرى فان الأمر على غاية البساطة والسهولة . أتذكر تلك
الليلة الأخيرة التي حضرت فيها الي ورأيتني أطالع رواية كانت وصيقتي نينا
تلك الليلة علياً ولم ادع لها طيبياً لأنني ظننت أن توقعها لا طائل تحته ولم أدر أن
تلك الابنة المسكينة كانت مصابة بعلة قلبية ففضي عليها الساعة الخامسة في اليوم
الثالث من حضورك الي مخظرك لي إذ ذاك أن أضع تلك الابنة مكاني وخصوصاً
لما بيننا من المشابهة في اللون والسن والشعر وأخبرت ايفان الخادم بذلك وقلت له

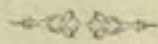
أن بعض الجناة يودون اغتياي «

- « هل ذكرت اسمي له ؟ »

- « كلاً كلاً و بعد أن وضعت ثيابي على جثة نينا نقلناها الى غرفتي ثم لبست ثيابها وأخذت أمنن جواهري وسافرت الى باريس تاركة ايفان في البيت ولقد أخبرني أنه بعد ذهابي شاهد رجلاً متوسط القامة قد دخل البيت بعد أن فتحه بفتح مفتاح كان في جيبه ثم أخذ يجول في الغرف حتى بلغ غرفتي فرأى هناك في الظلام جثة نينا التي ظننا اياي ولقد حصل كل ذلك بعد موت نينا بنحو نصف ساعة فقط »

- « ان تشوه الوجه هو الذي حال دون معرفتي حقيقة الشخص »

- « لقد أصبت ومع كل ذلك فإنه لم يكن هنالك من جريمة أما أنا فتمكنت من التخلص وقد غيرت اسمي فلا يوجد الآن في العالم الأميرة كاريوف بل مادام ركنتسكي واني لا أزال أحبك ولكن أرى أنه لا بد لنا من الافراق لأنه اذا عدنا الى اجتماعنا اكتشفت لجنة النهلست حقيقة الأمر وعادوا الى غدوهم بي أو بك وها اني الآن مسافرة الى بروكل ولا بد لي من العجلة لأن القطار يكون على أهبة السفر بعد ربع ساعة ولما بلغناه هزرت يدها وقلت لها « أودعك يا مولاتي » فقالت « لا - قل الى الملتقى » ولما تحرك القطار وضعت أصابعها على شفثيها اللطيفتين كأنها تقباني عن بعد وقالت « الى الملتقى يا حبيبي فانك كنت سبياً في نجاتي من مخالب المنية » فوقفت صامتة لا أدري ماذا أفكر أو أقول



الفصل السادس

« ساعة المنية »

ان البوليس السري لسفارة روسيا في لندنرا عبارة عن جيش من العمال دأبهم

السعي والتنقيب عن مكاييد النهلست وأسرارهم والوقوف على كل حركة من حركاتهم وعليه كان من دأبنا اجراء حركات ودسائس بعيدة عن مرادنا وليست من الحقيقة في شيء والغرض الوحيد من ذلك ايها البوليس السري وابعادهم عن اكتشاف الدسائس الا كيدة الصحيحة فانه لا يوجد ملك في العالم قط له من الجواسيس وزمرة العمال ما لقيصر الروس فانهم في كل عاصمة وفي كل بلاد ولا بد من الاقرار أنهم من أذكي جواسيس العالم وأشدهم مهارة وأرشقهم حركة وأكثرهم سعيًا وأجرأهم اقدامًا وأعظمهم بطشًا ولكل سفارة من سفارات أوربا نيف وخمسون شخصًا في جهد مستمر ودأب متصل للوصول الى معرفة من يشبه في أمرهم من الروس بين المشتغلين بالامور السياسية بعد أن ينزحوا من بلادهم ويستوطنوا العواصم الأوربية يصبح هؤلاء دائمًا وأبدًا تحت أنظار الرقباء من الجواسيس الذين يكونون لهؤلاء الأقسام أتبع لهم من ظلمهم ويقدمون بشأهم التقارير المطولة والبيان الوافي الى الجنرال سكرتسكي رئيس المصاحبة في بطرسبرج ليكون على بينة من أمرهم

وان القحة والجرأة التي يصل اليها هؤلاء الجواسيس في الممالك الأوربية الصغيرة وفي مثل بلغاريا ورومانيا وسويسرا وإيطاليا تبلغ حدًا فاحشًا من التطاول ومجاوزه الحقوق الدولية حتى أنهم يستبدون أحيانًا في أعمالهم كما لو كانوا في مقاطعات روسية وكثيرون من الخبيرين في البلقان يعتقدون أن البلغار بين الذين حاولوا اغتيال مونتوف رئيس بوليس روستشوك عند ما توجه الى بخارست انما فعلا ذلك بايعاز أحد كتمة أسرار السفارة الروسية في رومانيا ولم تقف حجة هؤلاء الأقسام عند هذا الجذبل حملوا البعض بالرشوة والدنانير الواضحة على وضع آلات لتزيف النقود خلسة في منزل أحد مشاهير كتبة الروس وهو الموسيوكس دوبروجانو كما اتضح ذلك أثناء المحاكمة والانكى من كل ذلك أنهم وضعوا خلسة بمثل هذه الدسائس قنابل ديناميت وغيرها من المواد الانفجارية في بيوت بعض الروس بين النازحين الى العواصم الأوربية ثم وشوا بهم الى المحاكم حتى اذا وجدت هذه المواد كان هؤلاء الأقسام المتهمون عرضة للتقصاص

والطرء فيذهب بذلك نفوذهم السياسي وتبطل دسائسهم من تلك العاصمة ولقد تبين حديثاً أثناء محاكمة جرت بهذا الصدد في باريس حيث حكم فيها أولاً على ستة من الروس بالسجن سنوات عديدة ان القنابل الديناميتية وضعت في بيوت أربعة من المتهمين على الأقل بدسائس جواسيس الحكومة الروسية ولقد بلغ تفنتهم بالدهاء حدًا حارت عنده العقول وأوقع النهلست حيناً من الزمن في أشد الخيرة والاندهال وذلك أن بعضاً من أفراد هؤلاء الجواسيس اتصل الى قتل بعض من اخوانه الجواسيس تزلفاً للنهلست وتمهيداً لانخراطه في ساكنهم حتى يكون على بينة تامة من كل حركة ودسياسة ومكيدة تصدر منهم

ولقد أحدثت الحكومة الروسية مؤخراً تحسينات مهمة وازدادت جديدة في مصلحة جواسيسها بالممالك الأوربية زادت انفاقاً وارهاباً فقد جعلت باريس العاصمة العظيمة مركزاً لقواتها تنبث منه وتتشعب الى غيرها من المدن التي يؤمها طلبة العلم في روسيا وذلك نظير مونبليه وزوربخ وبرن ونيس ومنتون وما شاكلها أما في لوندرا فان الجاسوسية فيها مصلحة مستقلة عن غيرها ولا غرو فان لندرا بمثابة مملكة برمتها من ممالك العالم وخصوصاً لأنها العاصمة العظمى التي تضم عدداً كبيراً من مجرمي الروس السياسيين ونوابغ كتبهم وعظماؤهم فيلقى فيها هؤلاء الجواسيس للنهلست شراكاً غريبه الأشكال متعددة الأنواع لا يقاعهم في حباتهم من ذلك أنهم أنشأوا حديثاً نادياً علمياً لطلبة العلم وأصحاب الأقلام الروسيين يؤمه الجواسيس متى أرادوا دون أن يعلم أحد أنهم هم الذين أنشأوا ذلك النادي فتنقذت اليه الشبان سهل على الجواسيس معرفتهم ووضع الشراك التي يلزم أن تلقى لهم ولكن النهلست نفسها يعلمون كل ذلك وسائر ما ينصب لهم من الشباك فيتجنبونها تجنب الأفعى

وحدث في أواخر أيام اسكندر الثالث ان زاد استبداد الحكم في الرعية وكثر الجور والمظالم وبلغ صراخ المظلومين عنان السماء وأرسل كثيرون من الأقوام الى منافي سيبيريا وخصوصاً من أعضاء جمعيتنا فعقدت اللجنة العاملة جلسة في لندرا وقررت وجوب ارهاب القيصر وذلك بنسف قصر الشتاء في بطرسبرج

حيث هنالك موظفان كبيران من أعضاء جمعيتنا يعاونانا سرّاً على انجاز العمل
ولما أقرت اللجنة العاملة على ذلك أخذت في أعداد الوسائل اللازمة لهذا الارهاب
وأخطرت بذلك سائر فروعها في المراكز الاوربية الروسية
أما آلة الهلاك الديناميتية التي أقرت اللجنة على صنعها فهي على شكل ساعة
كبيرة لاشيء في ظاهرها يدل على دخيلة أو مكيدة في الامر وينط صنعها بتقولا
ترسنسكي أحد مهرة الصناع وهو هو نفسه الذي اصطنع القنبلة التي انفجرت في القطار
الامبراطوري على مقربة من غوردنو وغيرها من القنابل التي أوقعت الرهبة في
قلوب كثيرين من حكام الروس وأمرائهم وواضح ان أهم ما نرمى اليه في مثل
هذه الأحوال بقاء الأمر سرا طي الحفا والكتمان فالتخذنا أشد وسائل الحرص
والحذر ولكن مع كل ذلك تبدى لنا ذات يوم ما يؤخذ منه ان الجواسيس
بدت لهم لوائح التحذر وانهم في نهضة جديدة وجهد متصل لاكتشاف لغز من
الألغاز فاتضح لنا من كل ذلك أنهم أحسوا بالدسيسة التي شرعنا بها
ولما تبين ذلك التأمت اللجنة العاملة على عجل ونظرت في الطريقة المثلى التي
يحسن بنا اتباعها في مثل هذا الموقف حتى لا ينكشف أمرنا أو نفشل في عملنا
وكنت قد انقطعت منذ أشهر عديدة عن التردد الى نادي الثورة حتى لا يشتبه
في أمرى أحد من الناس واستأجرت بيتاً من أحسن بيوت العاصمة وفي أفضل
أحيائها فلم يكن يخطر على بال بشر أني من طغمة النهيلىست أو لي بأحد من
أصحابها شيء من العلاقة فهذه الاسباب وقع اختيار اللجنة علي وعلى صديق
لي يسمى أورلوف لكي نكون رقيبين على أولئك الجواسيس الى أن يتمكن
الرئيس بروف واللجنة العاملة من انجاز الآلة وبعثها الى روسيا
فتمت على هذا العمل بهمة لا تعرف الكلال وعزم لا يتطرق اليه الملل
فكنت أنتكر متزيهاً بأزياء مختلفة الاشكال متعددة الأنواع وأتبع الجواسيس
من حي الى حي ومن حانة الى أخرى . أتبعهم الى أحقر مواضع العاصمة وأسفل
أفراد الاقوام واستعنت على هذا الامر بنفر من اخواننا كنت أبعثهم الى مواضع
متعددة من أنحاء العاصمة لكي يكونوا باعثاً على توجيه اتقاه الجواسيس اليهم

فيتبعون خطواتهم الى أن ظفرت بغرضي المطلوب وهو صرف جاسوسيتهم عن
الموضع الاصيل الذي تصنع فيه تلك الآلة البديعة الصنع ومما سهل علينا عملنا من
هذا القبيل ان اللجنة نقلت نادي الثورة من موضعه المشهور الى موضع سري من
انحاء المدينة فكانت في مأمن من الابصار وفي أثناء هذه الفترة ثابر نقولا
ترسنسكي على اكمال معدات آتته بكل حزم ونشاط

وحدث ذات ليلة أني كنت في قهوة من قهاوي المدينة وفي يدي جريدة
أطالعها واذا برجل أمامي يخاطب خادم القهوة باللغة الروسية فتطلعت فيه واذا
منظره يطابق صورة رجل سلمتني اياه اللجنة العاملة وأفادتي انه الرجل الشهير المسمى
غوبيو وهو أمير جواسيس الفرنسيين استخدمته الحكومة الروسية رئيساً لطغمة
جواسيسها في لندرا

وكان اذ ذلك قد أشعل عوداً من الكبريت لاشعال لفافة من التبغ فرجوته
أن يسمح لي باشعال لفاقي منها فكان ذلك سبباً لي الى محادثته والتقرب منه
وبعد أن تجاذبنا الحديث لحظة من الزمن أيقنت أن الرجل لا يشبه في شيء من
أمري ثم أخذنا بعد ذلك نعاقر الخمره وتقدح من أقداحها مسرة ووداداً نحو
ساعة من الزمن سرنا بعدها سوية في أحد شوارع المدينة ولما افترقا تبادلنا
رقاع الزيارة فأخذت رقعته وعليها اسم جول غوبيو وسلمته رقعتي وعليها اسم
المستر بول ما كنزي عضو في النادي الشهير في لندرا المعروف بنادي الاحرار
ثم أفادني ان مهنته تاجر قفا فيز أما أنا فأخبرته اني بلجيكي المحدث من عائلة غنية
حضرت الى لندرا طلباً للتجارة

وعند افراقنا ركبت عجلة وودعته ولكن لم أمكث فيها سوى دقيقة من
الزمن حتى نزلت منها وعدت من حيث أتيت أتبع خطوات الرجل الى أن
اهتديت الى منزله ومن تلك الساعة أخذت أرقبه للوقوف على طرق جاسوسيته
فلم يمض زمن طويل حتى علمت ما كان عليه من الدهاء واللاقدا م حتى أنه لم
يكن يفتر لحظة عن رقب حركات جمعيتنا ليلاً ونهاراً وليس ذلك فقط بل كان
يستعين على قضاء ما ربه ليس بجواسيسه الخصوصيين فقط بل بجواسيس الحكومة

الانكازية نفسها واتفق لي بعد ذلك الاجتماع بغو بومرارا عديدة فكنا صديقين
حميمين لانشوب صداقتنا شائبة

ثم حدث لي أن ذهبت في أصيل نهار الى بيت أحد الأصدقاء حيث
نقل نادي الثورة موقفاً فلقيت هناك الرئيس بروف فقص عليّ حديثاً وقع عليّ
وقع الصواعق وهو أن سائر أتعابنا قد ذهبت سدّي وأن الجواسيس والبوليس
السري تمكنوا من معرفة مسكن تقولا ترسنسكي حيث يشتغل في صنع الساعة
وانهم قد أقاموا حوله سوراً من الرقباء فرأت اللجنة أنه يترتب علينا دون إبطاء
نقل الآلة التي كانت قد كملت معداتها من المنزل قبل دخول البوليس الانكازي
السري اليه وتفقيشه وقر قرارها على اختياري أن أقوم بهذه المهمة الخطرة وتطوع
صديقي اورلوف بمعاونتي على العمل

فانطلقت الى منزلي كالسهام اذا مرق ووضعت على رأسي شعراً اصطناعياً
وغير ذلك من وسائل التنكر حتى أصبحت نظير رجل كهل من العمال البسيطين
فزلت وبيدي صندوق ووضعت عليّ منزراً كمنزّر العمال وكان قد جن الليل وأرخى
الظلام استاره فرأيت امام منزلي عربية مكتظة بالقوم فدخلتها كواحد منهم ولما
نزلت منها بجانب الموضع الذي سددت نحوه خطواتي التقيت برجل رث الثياب
يتمشى جثة وذهاً وهو يدخن وما تفرست فيه قليلاً وسط ذلك الزقاق الذي كانت
أنواره خفيفة حتى أدركت من ملامح وجهه انه غوييو فتأمل في بعين برّاقة
ولكنه لم يبد منه ما يدل على أنه عرفني فبقيت سائراً الى أن بلغت منزل
الساعاتي ترسنسكي فالنفت ورائي قبل دخوله فوجدت ظهر الجاسوس نحوي
ووجهه الى الجهة الأخرى فانطلقت داخل البيت في مثل غمض الجفن بعد ان
فتحته بمفتاح كان في جيبه وكان المنزل من طبقتين والظلام حالاً فخشيت ان
أشعل عوداً من الكبريت لئلا يكون وجود الضوء في الموضع باعثاً الى اشتباه
الجاسوس غوييو الذي كان يراقبه عن بعد فتلمست طريقي في الظلام الدامس
الى أن بلغت معمل ترسنسكي وهو آخر غرفة في الطابق العلوي كما كان قد أفادني
عنه قبلاً وبعد أن قشيت بضع دقائق وجدت الصندوق الذي يتضمن الساعة

على مقربة من النافذة وكان صغير الحجم مربع الشكل له ماسا كان على الجانبين بحيث أنه لا يمكن لأحد أن يشبهه بأمره على الاطلاق
فانحنيت لأمسكه بيدي بكل لطف وهدوء لأنه كان فيه من الديناميت ما لو انفجر لهدم سائر ذلك الشارع برمته وفيما أنا على هذه الحال شعرت بيد وقعت على كتفي ورجل يقول من ورائي « لقد قبضت عليك أيها البائني » فعلت من الصوت أن الرجل هو غويبو نفسه قد دخل ورائي الى المنزل واقفني أثري الى المعمل وكانت يدها ممسكتين ذراعي كقبض من الحديد ولكنه لم يكن سوى بضع ثوان من العراك حتى تخلصت يمناي وفيها مسدسي فصحت فيه « دعني يا رجل والأأطلقت مسدسي على هذا الصندوق الذي اذا تفرقع حملك الى الجحيم » قال « اذا فعلت ذلك كنت رفيقي الى ذلك الموضع واني الآن ألقى القبض عليك لأنك رجل جان يشتغل في اصطناع المفرقات » فرأيت اني اذا أطلقت عليه المسدس ترا كضت الناس وافتضح أمري فالتفت الى ماحولي فرأيت على الأرض قطعة من الحديد فالتقطتها وقبل أن يتمكن من التفوه بكلمة بادرنه بضربة شديدة على رأسه فلم ينس بينت شفة بل ترنخ ترنخ السكران وسقط الى الأرض لا يعي على شيء فرميت من يدي الحديد وأعدت المسدس الى جيبي وحملت الصندوق أجري به من البيت كالبرق اذا أومض حتى بلغت الزقاق ولما خرجت منه التقيت برجل يتمشى بجانب البيت فلما دنوت منه عرفته فاذا هو رفيقي أورلف فعجلنا المسير في طريق يختلف عن الطريق الذي أتيت به فشهدت هناك زمرة من الجواسيس والبوليس السري ولكنهم لم يشتبها في شيء من أمري ثم التقيت بعجلة استأجرتها ووضعت الصندوق بجانبني وأمرت السائق أن يعجل بالمسير حتى بلغت منزلي الخاص

وقد كان من حسن الحظ ان عجلت في المسير لأن أورلوف بقي يرقب ما يكون من الأمر فأفاذني بعد ذلك اني لم أكد أخرج من البيت حتى دخلته الجواسيس والبوليس السري ولكنهم لم يتمكنوا من العثور على شيء خلا بعض أدوات صناعية ورئيس الجواسيس الذي كان ملقى على الأرض في حال الانهيار

أما غويبو فإنه لم يمر عليه سوى بضعة أيام حتى شفي مما أصابه فانتقيت به بعد نحو اسبوع في بعض أنحاء المدينة وتقدمت اليه مسلماً عليه كالعادة فقابلني بالأنس والبشاشة فدعوته الى منزلي لمناولة شيء من المشروب فلم يمتنع عن ذلك ووجدت أنه لم يكتشف من أمري شيئاً ولما جلسنا تتعاطى المدام حددت فيه نظري فوجدته على معتاد حاله من الصداقة والمودة وكان على مقربة منا الصندوق الذي يتضمن الساعة الديناميتية تحت ستار من الكشمير ثم أخذنا في معاينة الهوسكي وهو لا يدري أنني قد وضعت مخدراً في الزجاجات التي أمامه فلم يكن سوى قليل من الزمن حتى شعر بدوار فوضع يده على رأسه منذهلاً وقال « لا أدري ماذا أصابني فإني أشعر بصداغ ودوار في الدماغ » ولم يتم كلامه حتى سقط من على كرسيه الى الورا. ولما أخذ منه المخدر كل مأخذه أخرجت الأوراق التي في جيبه فوجدت كتباً متعددة ومحفظة مدونة فيها أسماء النازحين الروسين في لندن وداخل غلاف المحفظة كتاب من رجل عليه عنوان موضعه وفي ذيله امضاؤه فاذا هو من بآروفسكي أحد أعضاء جمعيتنا في باريز فعلمت من مطالعة الكتاب انه هو الرجل الذي أفشى سرنا بخصوص صنع الساعة الديناميتية وأنه ينقد راتباً سنوياً من حكومة روسيا وليس سوى أحد جواسيسها منتظماً في سلك أعضائنا فنسخت الرقيم المشار اليه على ورقة خاصة وبعد أن نقلت سائر ما يهمني نقله أعدت كل شيء الى موضعه وأخذت أرشق وجه ضيفي بالماء البارد وأنشقه بعض المنبهات حتى عاد الى رشده وهو يقول ان ما جرى له انما كان من مفاعيل الهوسكي وحرارة الغرفة ففتحت النوافذ الى أن استفاق جيداً وكان أول أمر فعله ان وضع يده في جيبه حيث كانت أوراقه ولما رأى انه لم يفتقد منها شيء اطمان وبعد أن جلس برهة ودعني وركب عجلته وانصرف ثم ذهبت في مساء ذلك اليوم الى نادي الثورة وقدمت تقريراً بشأن خيانة بآروفسكي فصدر عليه الحكم بالاعدام

وفي هذه الاثناء وردت أنباء الرفاق من بطرسبرج تفيد أن سائر معدات المكيدة أصبحت على تمام الإهبة وان أحد الأعضاء قادم من بطرسبرج الى

بروكسل عاصمة البلجيكي لاستلام آلة الهلاك من اللجنة العاملة في لندرا ولقد قام في وجهنا شيء كثير من الصعوبات لأن الجواسيس والبوليس السري كانت على الدوام مرابطة في الثغور البحرية وواقفة بالمرصاد لنا في سائر محطات السكك الحديدية في أنحاء البلدان المختلفة يتفرون بكل قادم ويرقبون كل غريب وفضلاً عن كل ذلك فإن نقل الآلة نفسها محفوف بكثير من المخاطر لسهولة تفرقتها ولأنه لا بد في سائر الجمارك من فحص ما يمر فيها وتفتيشه وعائدة كل ذلك علينا وبال ولكن رصفاً نافي بطرسبرج عرفوا مقياس الصندوق الذي يتضمن الآلة واتخذوا تحوطات شديدة لوضعه ضمن صندوق آخر ومهريه في الجمارك التي يمر بها وخصوصاً ما كان منها في ألمانيا وروسيا وبعده مناقشات وبحث مستطيل أناطت اللجنة بي تسليم الصندوق لمن يحضر من روسيا لاستلامه

ولما كان سفري بالطرق العادية سواء في السكة الحديدية أو البواخر محفوفاً بالمصاعب والمخاطر لكثرة العيون والارصاد صممت على اتخاذ طرق غير مطروقة فتوجهت الى قرية صغيرة على الشواطئ الإنكليزية لا تدنو منها بواخر النقل العادية ونزلت في نزل حثير شاعراً أني هنالك في أمن من كل خطر مفاجئ وبينا كنت ذات يوم جالساً في قاعة النزل واذا بأحد البحارة قد دخل وجلس بجانبي يعاقر الخمر ويغازل خادمة المنزل فعرفت منه أنه صاحب مركب في تلك الناحية فسألته هل يتاح لي تهريب بعض أشياء دون دخولها في الجمارك فقال لي انه على أم الصداقة والولاء مع سائر خفرا السواحل وان ذلك لمن أسهل الامور عليه فطلبت منه أن يفيدني اذا كان يمكنه ايصالني في صباح الغد الى الشواطئ البلجيكية وكم يطلب أجره على عمله فقال ان ايصالني لمن الأمور السهلة والاجر عشرة جنيهات فحاولت اتقاص القيمة ولكنه أفادني انه يوجد معه ثلاثة من الرفاق وان مهمتهم لا يتخلو من خطر عليهم فاتفقنا أخيراً على ذلك وأفدته أن معي صندوقاً يتضمن حلياً وجواهر ثمينة أود تهريبها فتبسم وقال « أليست حلي مسروقة؟ ولكن مالي ولهذا فانت تدفع لي أجرتي ولا يهمني غير ذلك » فطلبت منه أن يكون على أهبة السفر في المساء

وعند حلول الموعد المضروب أخرجت الصندوق الذي كان موضوعاً مع
أثوابي دون أن يشعر بي أحد ووافيت رجالي الى المركب فوجدتهم نقرأ من القوم
تلوح عليهم لوائح الشراسة وغلظ الأخلاق ثم نشروا القلع وجرى بنا المركب
نحو الشواطئ البلجيكية فهاج علينا البحر أثناء السفر ولبثت أمواجه المتلاطمة
تزد وتهدج حتى منتصف الليل وكان الرجال مشتغلين بتسيير المركب وسط الزواجع
والعواصف والامواج المتعالية أما أنا فكانت وبجانبي صندوقي في غرفة صغيرة
قدرة لا شيء فيها سوى ضوء ضئيل من مصباح زيتي كنت أطالع على نوره عددًا
من جريدة والظاهر أن حركة المركب جعلتني أميل للنعاس فأغمضت جفني ولا
أدري كم بقيت كذلك من الزمن ولكن عند ما استفتقت من النوم سمعت حولي همساً
ووجدت ان المصباح الذي كان بجانبي قد انطفأ وليس حولي سوى ظلام دامس
وليل مدلم

ولما أصغيت قليلاً سمعت النوتية يتكلمون وعلمت أن الغرض من كل ذلك
اقتسام الجواهر والحلى التي كانت في الصندوق الذي بجانبي وسمعت أحدهم يقول
للآخر « هو ذا الرجل نائم فلنأخذ الصندوق وإذا تحرك رمينا به الى جوف البحر كما
فعلنا بذلك الرجل من قبله » فعلت إذ ذاك أني بين زمرة لصوص من النوتية
ولبثت ساكتاً لا أحرك عضواً من جسدي الى أن شعرت بيد انسلت الى ماتحت
رجلي وجذبت الصندوق الى الخارج فرأيت إذ ذاك أنه لا بد من الاستيقاظ
والأ ذهبنا جميعاً شذرات في الهواء فوقفت وقلت لهم
« ماذا تريدون من هذا الصندوق ؟ »

فأجابني الرئيس « مكانك فان غرضنا الوصول الى الالماس والزربرجد والذهب
التي فيه فاذا تحركت رميناك غداً للأسماك »

فأشهرت مسدسي وقلت لهم « أقسم بالله العلي العظيم أن من يأخذ هذا
الصندوق يقع موضعه ميتاً » فشعرت إذ ذاك أن يداً لمستني ثم أشعل أحدهم نوراً
فوجدت أن النوتية الأربعة هم في نفس الغرفة التي أنا فيها ولما شاهد الربان
مسدسي لاحت عليهم كلهم لوائح الخيرة والذهول وقال لي

« ان عشرين جنياً لا تكفي فيجب أن نأخذ نصيينا من هذا الصندوق »
ثم انحنى أحدهم وهمّ بحمله فقلت له أعدده الى مكانه والآن أطلقت عليك
المسدس فلم ينتبه الى كلامي فصوبت اليه إذ ذاك المسدس وأطلقته عليه فمرت
الرصاصه بجانب أذنه ووقعت على مرآة في الجدار فكسرتها فوضع الصندوق على
الأرض واستل سكينه وهم بضربي فسكته رفيقه وقال له « مهلاً ولا تعجل في
قتله بل نمهله لحظة أخرى حتى اذا سلم الحلى عفونا عنه وأنزلناه على شواطئ
بلجيكا » فنظرت إذ ذاك الى الرجل وقلت له « لا بد لي الآن من افادتكم
حقيقة الأمر فليس في هذا الصندوق شيء من الحلى على الاطلاق بل ان المادة
التي فيه هي ديناميت اذا انفجر ذر كم رماداً في نواحي الفضاء »
ولما سمعوا كلمة الديناميت علت وجوههم صفرة الوجع وقالوا بصوت واحد
« أهذا ديناميت ؟ »

فأجبتهم بصوت جهوري والغضب قد تبدى في عيني « بلى بلى واسمعوا
ما أقول لكم فليست بسارق كما تتوهمون وليست بلص أو سالب ولكن لي مهمة
يترتب عليّ قضاءها ووصولي الى ساحل بلجيكا قبل شروق الشمس فان تأخرتم
عن ذلك ذهب تبعكم سدى ولم تبق فائدة من ذهابي الى الموضع المشار اليه
واني رجلٌ سئمت الحياة ومللت البقاء فوالله اذا رأيت مطالاً أو لؤلؤاً ونفاقاً وخذاعاً
كما بدا الآن منكم لا ديرن زنبرك هذه الساعة وانسفكم أعضاء مشورة في فضاء البحر
ما كلاً للأسماك وطيور الهواء » وكانت لوائح الشراسة على وجهي وشرر الغضب
يقدح من عيني ثم دنوت من الصندوق فأخرجته وأريتهم ما فيه فأسقط في يدهم
وظهرت عليه لوائح الكآبة والخضوع فعادوا الى موضعهم دون أن ينبسوا بكلمة
ولما علم النوتية بوجود الديناميت أخذوا يعجلون بالمسير تخلصاً من هذه
الحالة الخطرة التي أصبحوا ومركبهم عليها ولم يبرغ الصباح الا وقد وجدت نفسي
على الساحل بجانب بلاكنزج فأنزولوني في قارب الى البر ومن هناك حيث توجهت الى
البلدة المشار اليها حيث وجدت عجلة سائرة نحو عاصمة البلجيكي قفزت فيها حتى
بلغت بروكسل قفزت منها في نزل أوربا

وبينما كنت جالسا الظهر على مائدة الطعام واذا بسيدة طويلة القد مليحة القوام رشيقه الحركة جميلة الملابس تبلغ نحواً من ثلاثين سنة من العمر دخلت وجلست بأزائي وحدثت بعينيها السودا وبين البراقتين في هنيهة كمن يتفرس في الآخر تفرساً شديداً يشف عن سؤال ولم يكن سوى لحظة من الزمن حتى ذهلت كل الذهول عند ما أبدت السيدة المشار اليها الاشارة النيهيلستية فرددت الاشارة اليها وأومأت اليها أن تكون مطمئنة ثم أخذنا نتحدث حديثاً عادياً ولما وقفنا للانصراف من قاعة الطعام دنت مني السيدة وقالت لي باللغة الروسية ان غرفتي عددها ٥٢ فاحضر اليّ بعد نصف ساعة

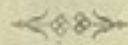
فحضرت اليها في الموعد المشار اليه دون ان يشعر بي أحد ولما دخلت غرفتها أخرجت من طيات ثوبها مقابل الصدر أوراقاً رسمية مختومة بخاتم رئيس اللجنة في بطرسبرج ينبي بتعيينها رسولا لاستلام الصندوق فلم أبطل ان ذهبت الى غرفتي وأحضرتني على عجل دون أن يراني بشر ففتحت صندوق ثيابها ووضعته في ناحية خاصة صنعت لهذا الغرض ثم جلسنا تتجاذب أطراف الحديث فأخبرتني ان اللجنة في بطرسبرج قررت استخدام الآلة لتنفجر في قصر الشتاء في الليلة التي عيّنت لاجتماع الأمراء والأعيان فيه وقد أخبرني أنها حضرت من بركسل منذ نحو خمسة أيام وأنه لا بُد من رجوعها صباح الغد التالي لكي تصل الى بطرسبرج قبل الأجل المضروب لاتمام المكيدة فقلت لها ان اللجنة العاملة في بطرسبرج تهديها تحيتها وتتمنى لها النجاح في أعمالها فشكرتني وقالت « وقفت نفسي على خدمة وطني » ثم ودعتها وانصرفت من حضرتها

وفي صباح اليوم التالي سألت عن السيدة فقيل لي أنها سافرت ولما سألتهم عن موضع توجهها أجابوا انها قالت أنها ذاهبة الى انكارا وبعد أن تناولت فطور الصباح عدت الى غرفتي واذا برجل قد دخل عليّ فلما تأملت فيه دهشت شديد الاندهاش لأن الرجل المذكور لم يكن الاّ المسيو غوييو خياني تحية الوداد وقال لي « ظننتك نائماً حتى الآن فرمت زيارتك باكرًا ولكن ما أتى بك الى هنا وما أخال الأمر الاّ دخيلة عشق وغرام » فقلت له « انما حضرت الى هنا

لأشهادئين من رفاقي في الدروس لأنني كنت في زمرة طلبة العلم هنا « فأجاب
« حسناً وأظنك أخبرتي عن ذلك قبلاً ولكن هيا بنا بعد قليل نزل الى غرفة
الطعام ونصرف النهار سوياً فأجبت الى ذلك ونزلت قبله ولما عدت الى غرفتي
وجدت صندوق ثيابي مفتوحاً وأشياء مبصرة على الأرض فعلمت أن ذلك فعل
صديقي الجاسوس ولكنه لم يكتشف شيئاً مطلقاً

وبعد بضعة أيام بينما كنت أجول في المدينة واذا بحملة الجرائد ينادون
« ملحق خاص للجريدة - مكيدة - محاولة قتل القيصر » فاشترت عدداً
واذا فيه تفصيل ذلك الانفجار الهائل فان القاعة الكبيرة للقصر مع ما يجاورها
من البناء تداعت للسقوط والخراب وان عدداً كثيراً من القوم جرح ولكنه لم
يقض على أحدٍ وعليه تكالت جميع أعمالنا بالنجاح لأن الغرض من هذه المكيدة
انما كان ارهاب الحكومة لكي تعلم انها مع شدة حرصها وجواسيسها وبوليسها
لا تأمن مغبة أعمالها وأن يد النعمة تبلغ اليها ولو وضعت من جيوشها وسيوفها
حولها حصناً منيعاً

وفي اليوم الذي بلغت فيه لندرا طالعت عدداً من جرائد المساء واذا فيه
تفصيل مقتل غريب تحت عنوان « لغز من ألغاز القتل في باريس » وفيه بيان
اكتشاف جثة رجل في نهر السين لم يعلم أولاً من هو ولكن عرف أخيراً أنه
باروفسكي وهو الرجل الذي أفشى أمر الساعة الديناميتية الى جواسيس الحكومة
الروسية وسفارتها



الفصل السابع

« أوله سقم وآخره قتل »

وقفت ذات ليلة ساعات طويلة على باب الاوبرا وأنا أعرض على المارة
والداخلين أعداد الجرائد الكثيرة التي كانت تحت أبطي للمبيع فبعد أن بُح صوتي

من كثرة الصراخ لم أبع أكثر من خمسة أعداد وكان حملة الجرائد ينظرون اليّ
شزراً لمزاحمة رجل جديد لهم في مهنتهم وهم لم يعلموا أنني توسلت بهذا التنكر
لتجسس أمر ذي شأن وبيان الأمر أن قادمًا جديدًا من بطرسبرج يسمى
فورونوف حضر الى لندرا مدعيًا أنه تاجر من موسكو ولكن البلاغات الرسمية
التي وردتنا بشأنه من ادارة أعمالنا في بطرسبرج جعلتنا في ريبة من أمره وان له
علاقة بجواسيس الروس في عاصمة الانكاييز فانه بعد انفجار الساعة التي مر بيانها
ونسف قصر الشتاء الامبراطوري وجد القيصران غويبو رئيس الجواسيس الفرنسيين
مقصر في أداء واجباته فأمر بعزله ولذلك ظننا أن هذا الضيف الجديد قد عين
مكانه رئيساً لجواسيس الروس في لندرا وقد تبين لي من مراقبته والتنقيب الذي
أجريته بهذا الصدد ان الرجل حضر لمهمة سرية سياسية

ولقد أخذت في نقصي أمره ورقبه منذ اليوم الذي بلغنا فيه خبر حضوره
من بطرسبرج فتكرت بزني بائع جرائد وأخذت أتبع خطواته حتى أصبحت
أتبع له من ظله وعليه فقد حضرت هذه الليلة أيضاً لمناجاة أعمالي وأنا معرض
للبرد تتساقط عليّ الامطار قبل ثيابي وبينما كنت واقفاً على انفراد على مثل هذه
الحالة الكثيرة واذا بسيدة قد خرجت من الاوبرا عليها وشاح كبير وهي ذات قامه
هيفاء نزي بالفصن الرطيب ومقلتين سوداوين يشق لسهامها القلوب قبل
الصدور وشعرها جمدي كثيف وما بلغت باب مدخل الاوبرا حتى أسرع اليها
جمع من الخدم يسألونها اذا كانت تحب أن يحضروا لها عجلة فالتفتت تحديق بهم
دون أن تجيب شيئاً وبعد أن لبثت برهة تنظر الى ما حولها تفرست بي أنا
لحظة من الزمن ثم سارت اليّ فلما صارت على مقربة مني أخذت أصرخ معدداً
أسماء الجرائد التي بيدي فالتفتت اليّ وقالت بالروسية « اعطني أية جريدة
شئت يا غورنشا كوف سرجيوس فلاديمير » فعلت وجهي صفرة الوجع وارتجفت
أعضائي من شدة الجزع حتى اصطكت ركبتي فلما رأت مني ذلك تبسمت
ودنت اليّ ثم همست في أذني اللفظة النهلسية المتعارفة بيننا في سائر أقطار الأرض
فردت اندهاشاً على اندهاش وكدت أسقط الى الأرض من شدة الانذهال

والذهول فنظرت اليّ بعبوسة وقالت اعطني جريدة فأعطيتها عدداً فأخرجت من جيبها بنساً بمن العدد ووضعت في يدي مع ورقة صغيرة ملفوفة وقالت « هذه من اللجنة العاملة » ثم ركبت عجلة كانت واقفة بجانبها وسارت لا تلوي على شيء فشيت الى نقطة لا رقيب فيها ووقفت تحت نور أحد مضايح الشارع ففتحت الورقة واذا بها ما يأتي

« ان الشخص الذي يسلمك هذه التذكرة انما هو صوفيا زاغارفا فتكرم بزيارتها الساعة العاشرة صباح غد في منزلها عدد ٣٤ رتشمند وقدّم لها سائر ما تطلبه من الاسعاف اللازم
« بول برووف »

ولم آت على ثمة هذه الأسطر الوجيزة حتى نهمل وجهي بشراً وسروراً لأن اسم صوفيا زاغارفا طار في سائر الآفاق حتى أصبح أشهر من نار على علم فانها سيدة اشتهرت بجرأة اقدامها وتوقد ذهنها وحدة خاطرها وثبات جنانها وهي التي أتت من الأعمال الغريبة ما تدهش له العقول وتبحر الأفكار ويكفي أن أوردك من ذلك مثلاً واحداً وهو أن الجنرال ياغودكن رئيس بوليس موسكو ضايق كثيرين من سكان تلك المدينة بعد محاولة نسف القصر الشتوي بالساعة الديناميتية على ما مرّ بيانه ونكل بالأبرياء تنكيلاً شديداً حتى أثار حق السيدة المشار اليها وكانت إذ ذاك قاطنة في زوريخ حيث كانت سيدة وأميرة بين طلاب العلم والأدب فلما حضر الجنرال المشار اليه الى زوريخ اغوته وسلبت له حتى اذا ما خلت به أطلقت عليه مسدسها وأمانته قتلاً ولم تكتمف بذلك بل حملت سائر المهاجرين الروسين من طلبة العلم هناك وغيرهم من طلبة العلم الالمانيين على الذهاب الى روسيا والقيام باجرات مدهشة لا يزال يرن صداها في سائر الأقطار الأوربية وذلك بناء على ما كانت عليه من الجمال الرائع والصيت الذائع والسطوة على عقول ذوي الأدب ولكن كانت في كل ذلك بالغة أقصى الأدب والصون والعفاف حتى ان اسمها وشرفها لم يمسهما سوء ولكن الغيرة التي كانت تشتعل في قلبها للقيام بخدمة الجمعية التي خصصت نفسها لها لم تبق موضعاً لسواها من العواطف كالعشق والغرام ولم يعرف شيء أكيد عن تاريخ هذه السيدة سوى أنها أقسمت للطفمة يمين

الاخلاص في بطرسبرج ثم حضرت بعد ذلك الى سويسرا حيث أظهرت من العزم والاقدام ما حير الرجال

فبعد أن رقت الرجل الذي حضرت لأجله الى باب الاوبرا وتبعته الى المنزل الذي كان فيه توجهت في اليوم التالي في الوقت المعين الى منزل السيدة صوفيا في رتشمند فوجدته منزلاً أنيقاً فسيح الارحاء يطل على نهر التامس وما يجاوره من المناظر البديعة والجنائن الجميلة وما لبثت في المنزل سوى بضع دقائق حتى دخلت الى صوفيا زاغاروفنا وسلمت عليّ بوجه ملوّه البشاشة والبشر ولما سألتها أية خدمة أتمكن من القيام بها لها كان جوابها ما يأتي

« اني قدمت انكلمنا لغرض سري يختص بجمعتنا ولقد أثنت عليك اللجئة العاملة في لندراثنا» جميلاً وقالت انك قادر أن تكون لي عضدًا قويًا في الغرض الذي أتيت لأجله الى هنا ولا قدرة لي أن أروح لك به الآن لا لأنني لا أؤمنك بل لأن للجدران آذاناً فهل أنت راغب في مساعدتي؟ »
« اذا كان في سبيل الجمعية فاني أكون لك عوناً على ذلك »

« اذا اصغ الى ما أقول لك - غداً يتغير اسمي فأصير صوفيا نبتكوف ابنة الجنرال نبتكوف الذي توفي حديثاً بعد أن كان حاكماً على سمولنسك وأنت ستكون أخي ايقان وغداً يجب علينا نحن كلينا أن نرحل عن المنازل التي نحن فيها الآن وننزل في نزل عظيم في حي الأشراف من المدينة حيث يجب أن يعرفنا كل من يتعرف بنا اننا أخ وأخت »

فأجبتها بالايجاب وعليّ علامات الدهول فلحظت ذلك وقالت « ان كلامي هذا يحيرك ولكن سوف نرى - أيعرفك أحد من السفارة الروسية هنا؟ » فقلت « لا » فأجابت وهي تبتسم « دعني أدبر الامر على ما أروم وسنرى أننا سنكفل بالنجاح »

ثم دعيتي لمناولة الفطور معها فلبثت هناك نحو ساعتين ونحن نتجادب أطراف الحديث وتناقش في أمور متعددة بخصوص جمعيتنا وما لنا من الحول والطول وما يتطرق أحياناً اليها من الخلل والفساد وأسباب الضعف والاذى الى غير ذلك

من المباحث الاجتماعية النهلستية ثم استأذنتها بعد ذلك وانصرفت
ولم يمر شهران من الزمن حتى دعيت وشقيقتي الجديدة الى ليلة راقصة في
السفارة الروسية فان صوفيا تمكنت من الحصول على رقاع الدعوة لي ولها
بطريقة سرية لم تبد لي حقيقة أمرها ولما وصلنا الى قاعة السفارة الفسيحة كانت
قد حلت الساعة العاشرة مساء فوجدنا السفارة غاصّة بالمدعوين من الأمراء
والكبراء والسيدات يتهادين بين الزهور والأنوار ظييات أوانس يكسف جماهن
الشمس ونزري طلعتن بالبدور ولكن شقيقتي صوفيا كانت أرشقن قدّاً
وأفتنن جمالاً

وبعد هنيئة دار الرقص على أنغام الموسيقى الشجية فكان الراقصون كواكب
ودراري تدور أزواجاً يتدفق البشر من أوجههم ثم حانت مني التفاتة فوجدت
صوفيا متخاصرة مع شاب متوسط القامة براق المقلتين وهي تنظر اليّ باسمة والجمال
يتألق في وجهها تألق النور

ولقد كنت انا نفسي بين جملة الراقصين فلبثنا على ذلك ردحاً طويلاً من
الزمن حتي أعياني التعب فسددت خطواتي الى غرفة الاستراحة حيث مدت
موائد الطعام والحلوى أشكالاً وألواناً فجلست على مقعد وأنا أقول في نفسي
ما عسى تكون المهمة التي حضرت لأجلها صوفيا وهي تكتمها أشد الكتمان
وبعد هنيئة دخلت صوفيا أيضاً وجلست الى جانبي فسألتها أمرورة هي في
لندرا فأجابتي أنها على أمم الجذل والابور ثم أفادتي أنها مشتغلة في هذه الليلة
بتشخيص رواية غريبة الفصول ثم سمعت صوتاً يكلمها من وراني فهضت كالظبية
تكلمه فبقيت متر بصاً في موضعي أسمع حديثها فاذا صوفيا تقول لمحدثها

« ألا تخاف اذا هولاء النهلست القتلة ؟ »

فأجابها باسماء « أأخشي بأس مثل هولاء وسيبيريا رحبية تسع ألوفا من
أمثالهم فانه لا يمر علينا قليل من الزمن حتى نرغم أنوفهم ونظفي جذوة ثورتهم
ونسحق ذراع قوتهم ولقد بعثت حتى الآن مئات من هولاء الى سيبيريا يجررون
قيود الذل ويحملون في أعناقهم سلاسل الخذلان وهذا هو السبب الذي لأجله

بودون الفتك بي «

« ولكن ألا تخشى انتقامهم ؟ »

« لا فان هؤلاء الانزال لا يجسرون على الحاق الأذى بي »

« أتجهل أو تنجاهل أن لرسلم وعمالمهم من الجرأة والاقدام ما ليس لغيرهم

واني لأخشى أنهم يفتكون بك «

« ان يدهم لا قصر من ذلك ولكن مالنا ولموضوع النهلست هذه الليلة فان

كووس المسرة طالحة بين أيدينا والسعادة ترفرف فوقنا بأجنحتها وحببني أجمل

الظبيات واقفة بجاني «

« أشكرك على اطرائك اياي شكراً جزيلاً ولكن موضوع النهلست من المواضيع

التي أتلف الى استماعها . ألم تكتشف شيئاً من مكائدهم ودرسانهم ؟ »

« بلى فاني قد اكتشفت شيئاً كثيراً من ذلك وقد أصدرت قبل حضوري

الى هنا الأوامر اللازمة لرقب كل خطوة من خطواتهم ولما كان لا بد من المحافظة

على حياة القيصر فاني عائد الى هناك بعد نحو اسبوعين حيث أرسل هؤلاء

الأقوام زرافات ووحداناً الى أقاصى سيبيريا ولكن مثلك يا حبيبتي لا يرافقها

الخوض في مثل هذه المواضيع التي تقشع لها جسوم الرجال فتكلمي عن الحب

والجمال والزهور والنور وكل ما هو جميل لأنك أبدع مظاهر الجمال «

ثم أخذ يبوح لها بشدة وجدده وغرامه وانه قد وقف قلبه على حبها ويرجو

منها أن تعطف عليه وترق له الى أن باحت له أخيراً بهيامها به فأخذ يدها وقبلها

ثم استندت على ذراعه وخرجا من الغرفة فتبعتهما وتأملت في الرجل فاذا هو

شاب يناهز الخامسة والثلاثين من العمر وقد تجملت على وجهه لوائح البشر والمسرة

ولما سألت عنه بعض الحضور قيل لي انه الجنرال متشكوف قدم حديثاً من روسيا

ترويحاً للنفس وكان ما سمعت من حديثه مع صوفيا بياناً كافياً أنه من جملة عمال

الحكومة ولكن لم يخطر وقتئذ في بالي قط أن الرجل انما هو رئيس بوليس موسكو

وانه أمٌ لندرا للوقوف على حقائق مهمه في مكيدة كان قد كشف أمرها قبل

سفره من هناك

ولم ننصرف من القاعة الا نحو اقبال الصباح ولما كنت جالساً في العجلة بجانب صوفيا قلت لها ان الرجل الذي كانت تكلمه حسن الخلق والاخلاق وانما قصدت بذلك استجلاء الامر لعلها تأتي على شيء من البيان فاكنت بقولها انه من أطف الشبان ثم دخلت في موضوع آخر تخلصاً من متابعة الحديث الأول ثم بعد بضعة أيام حضر الى زيارتنا متشكوف فعرفتني به صوفيا قائلة له اني أخوها ومنذ ذلك اليوم تمكنت بيننا عرى المودة والولاء فكنا نذهب سووية الى مواضع الزهدة وقاعات الغناء وقد تبدى لي أثناء هذه البرهة أن صوفيا زادت به هياماً ووجداً وأن حبه لها كاد يبلغ درجة العبادة فكان على الدوام يبعث لها من هدايا طاقات الزهور والحلى الثمينة والجواهر النادرة المثل شيئاً كثيراً وأنا أسائل نفسي بعد كل هذا ما عسى أن تكون المهمة السرية التي قدمت لأجلها صوفيا زاغارفنا الى عاصمة الانكايز

وبينا كنت عائداً ذات يوم الى المنزل دخلت قاعة الجلوس على حين فجأة فوجدت صوفيا تتأمل ملياً في شيء تحمله بيدها فشيت نحوها خلسة وتطلعت وراء ظهرها فوجدتها تنظر الى قطعة من الحلى على شكل دبوس لشعر الرأس بهيئة خنجر صغير نصله من الفولاذ الصريف ومقبضه من الذهب الخالص مرصع بالالماس والحجارة الثمينة فأحبيت ملاحظتها فدوت منها على عجل واختطفت الحلية من يدها فارتعدت ثم نظرت اليّ قائلة « أهذا أنت يا غورتشاكوف ؟ لقد أخفتني » فنظرت الى الدبوس وقلت « ما أجمله فمن أين لك هذا ؟ » قالت « هو يخصني » فأخذته وهجمت به عليها صو بأرأسه نحوها وذلك على سبيل المزاح فاضطرب جسدها وراجعت الى الورا وهي مرتعدة الفرائص ثم هممت بعد ذلك بفتحته على طرف الأنامل فلما رأت ذلك ارتاعت وقالت بلهفة

« ماذا تفعل يا غورتشاكوف ؟ فانك اذا خدشت أصبعك قتلت نفسك » ثم دنت مني وانتشلت الألة من بين أصابعي ثم أفادتني أن رأس النصل مسموم ولما دوت به الى جانب النور وجدت أن رأسه حتى نصف النصل قائم اللون فأخبرتني صوفيا أن خدشاً منه كاف لامائة رجل

« لماذا تحملين مثل هذه الآلة التي هي سم زعاف ؟ »
فأجابت « ألم تعلم حتى الآن ما الغرض منها ؟ » ثم أخرجت من جيبها كتاباً
باللغة الروسية وجلست بعد ذلك على كرسي وقد غطت عينيها بيديها ولبّثت
في البكاء فتأملت في الكتاب فاذا به من رئيس لجنة موسكو يفيد فيه عن وصول
التقارير الكافية بخصوص الجنرال متشكوف وان ذنبه قد ظهر لدى الجمعية ظهور
الشمس ثم في ذيله صورة حكم اللجنة عليه بالاعدام واناطة تنفيذ هذا الحكم
بصوفيا زاغاروفنا فنظرت اليها وقلت
« أمحيينه يا صوفيا ؟ »

— « اني قدمت أولاً الى هنا لأقف على حركات الرجل وما ينوي فعله بعد
عودته الى روسيا فحنت الرجل وكتبت بخصوصه التقارير الوافية الى لجنة موسكو
وأنت ترى انها حكمت عليه بالاعدام ولقد دب حبه الى قلبي ديب الحمرة في
الجسوم ثم حاولت كثيراً طرد هذه العواطف دون أدنى جدوى فيجب عليّ
أن أنقذه الآن من الشرك الذي أوقعته فيه بنفسه ولكن أنى يتأتى لي ذلك لأنني
إذا حذرته خنت للجنة التي ولجنتي الامر وأوقعتها في مخالاب العطب وجلبت
على نفسي حنقها وانتقامها »

ثم وقفت تمشي في الغرفة جيئة وذهاباً وأنا أنظر اليها دون أن أفوه بكلمة
أو أبدي رأياً وبينما نحن كذلك واذا بالخدام قد دخل ويده رقعة الزيارة فتأملت
فيها صوفيا وقالت

« هو الجنرال متشكوف دعه يدخل » ثم وضعت الآلة في عندها الحريري
وأعدت الكتاب وحكم الاعدام الى صدرها واذا بمتشكوف قد دخل فتقدمت
اليه صوفيا بوجه باسم وتغر وضاح تصافحه باليد التي قضى عليها أن تدينه بها
كأس الحمام ثم سلم عليّ وجلسنا تتجاذب أطراف الحديث امام موقد النار فبعد
أن تكلمنا قليلاً قال متشكوف

« ان هذه آخر زيارتي لكم »

فقال له صوفيا « أمسافر من هنا ؟ »

« نعم يا عزيزتي اني مسافر غداً صباحاً فان عندي أشغالاً ضرورية لا بد من
قضايتها وقد أتيت اليك الآن قياماً بفروض الوداع »
- « انك معجل في سفرك ولكن منى تعود؟ »
« لا أظنني عائداً الى هنا البتة وقد كان الغرض من حضوري الى لندن
الوقوف على أسرار امرأة اسمها الأول يشابه اسمك »
« ما غرضك منها؟ »

« الغرض الفناء القبض عليها وأن أطلب من الحكومة الانكليزية ارجاعها
الى روسيا لأنها هي التي قتلت سلفي الجنرال ياغودكن وهي من أشد أعضاء
النهلةست جرأة واقداماً فقد كانت وحدها الباعث على شيء كثير من الدسائس
والجبايل فاذا وُفقت الى العثور عليها فجزاؤها المشنقة »

فارتعدت صوفيا عند سماع هذا الكلام قائلة له « لا نتكلم بمثل ذلك
يا متشكوف ولكنني أشعر الآن بهرد خفيف فلا بد لي أن أضع وشاحاً عليّ »
ثم نهضت وقد علت وجهها صفرة الوجل فلبثت و متشكوف تتجاذب أطراف الحديث
وتشرب شيئاً من الموسكي وبقينا كذلك ننتظر عودة صوفيا نحو ساعة من الزمن
فلما حضرت ودعنا الجنرال متشكوف وتمنينا له سفرًا محفوظاً باليمن والاقبال
و بعد بضعة أسابيع صممت صوفيا على السفر الى موسكو وألحّت عليّ بوجود
مرافقتها الى هناك حتى لا يكون في سفرها باعث على الشبهة امام اللجنة والظاهر
أنها صممت على تحذير عشيقها من الخطر المحدق به مهما كلفها ذلك من المخاطر
والمشاق فأخذنا جوازين باسمين منتحلين ووصلنا الى موسكو حيث نزلنا في أحد
نزله الكبيرة ثم أخذنا نسير الى محلات النزهة والملاهي لعلنا نلتقي بمتشكوف منفرداً
لأننا خشينا الذهاب لزيارته في ادارة البوليس خوفاً من العيون وارصاد اللجنة
لأن الغرض الذي اتحلته في ذهابها انما هو أمام المهمة التي أتت لأجلها الى
لندن فتمكنا بوسائل سرية لا يعرفها أحد سوانا من التعرف بعظام الرجال وأمرأة
المدينة فدعينا ذات يوم لمناولة العشاء في دار أحد الوجها فذهبنا بعد أن علمنا
أن متشكوف بين جمهور المدعوين

فلما التقينا به قبل الجلوس على المائدة اندهل جداً وطفرف فرحاً فلم علينا
ووجهه يتدفق بشراً وسروراً وجلس على المائدة الى جانبنا وكانت صوفيا في
أوج الصفاء والجلد وجمالها الفتان يسبي العقول وبينما كنت أرقب حركاتها وأتأمل
في جمالها راعني منها أمرٌ واحد وهو أنني رأيت في شعر رأسها ذلك الخنجر القتال
يتألق فيه الماس تألق الشمس فأخبرت متشكوف أن الغرض من قدومنا الى
المدينة إنما كان لانها أمور مالية تعلق ببركة أينا

ولما قام المدعوون عن الطعام وانصرفوا الى غرفة الجلوس شاهدتها عن بعد
في حديث مع متشكوف والحديث ذو شجون ثم ما لبثنا أن دخلنا غرفة خالية
منفردة لا أحد فيها فتبعتهما لأنني ظننت من حديثها وأشارتها ان الوقت قد حان
لها أن تحذره عقبي الامر والاعتيال الذي تترقبه له فسمعته يقول لها وهو جالس
على زاوية الطاولة ووجهه باسم

« يا عزيزتي ما هو هذا السر العظيم الذي تودين الاباحة لي به ؟ »

« اخفض صوتك لانه قد يسمع حديثنا أحدٌ وذلك يمضي بكليتنا الى الهلكة »

« ما هو مرادك من كل هذا - ما هو هذا اللغز العجيب ؟ »

« أقول لك انه قد قضي عليك بالإعدام »

« أقضي عليّ بالإعدام - ومن يتجاسر على مثل ذلك ؟ »

« قضي بذلك عليك النبيليست الذين يتجاسرون على كل شيء - وقد قرأ

قرارهم أن تموت كما مات سلفك الجنرال ياغودكين »

فاصفرت سحنة متشكوف من الجزع وارتجف صوته وهو يتحدثها قائلاً

« ولكن قولي لي كيف تعلمين شيئاً من ذلك ؟ »

« اخفض صوتك يا متشكوف - اخفض صوتك فان للجدران في روسيا آذاناً

تسمع واصغ الى ما أقول لك - اني أحبك بل أنت هو الرجل الوحيد بين سائر

الرجال الذين التقيت بهم الذي تمكن حبه من قلبي فقد كنت قبل ذلك محاطة

بأشراف وأمراء يحسبون ابتسامي نعيماً لهم وحيي سعادة ولكن قبل أن التقيت

بك لم أعرف ما هو الحب واني لست بناسية ولاك واخلاصك لي حتى أنك

طلبت مني في لندرا أن أكون زوجة لك غير أنه لا يتاح لي أن أكون لك
غير ما أنا عليه في الوقت الحاضر صديقة ودودة طول العمر « ثم استولت عليها
الأحزان فخنق صوتها بالبكاء

فأخذ رأسها وضمه الى صدره قائلاً

« ولكن لماذا لا تقدرين أن تكوني زوجتي من يقف في طريقك ؟ »

فانتفضت ثم تملصت منه وعادت الى حديثها معه قائلة

« اصغ اليّ مرة أخرى يا متشكوف فاني لم أتجشم مشاق السفر الى موسكو
إلا لكي أحذرك من أعدائك وأنقذك من مخالب المنية التي أوشكت أن
تنشب أظفارها في شبابك وسأعود هذه الليلة ولن ترى وجهي بعد هذا أبداً ولقد
خاطرت في مجيئي اليك بحياتي لأن النيبليست يفترسوني كالوحوش الضارية اذا
علموا أنني أحذرك من الانتقام الذي يعدونه لك بتجريبك كأس الحمام من يد
أحد أعضائهم »

« وما هي هذه اليد التي تجرعي الحمام ؟ »

« هي ذات اليد التي جرعت الجنرال ياغودكن ذلك الكأس وصرعته
قتيلاً عند أقدامها أعني بها يد تلك المرأة التي هي ظبية في نوادي الحظ ولبوة
في ساحات العراك يد صوفيا زاغاروفنا ! »

« ولكن كيف تأتي لك الوقوف على ذلك ؟ »

« أضرع اليك مرة ثالثة أن تمنفض صوتك ولا تتكلم إلا همساً لأنه اذا
عرف النيبليست أمرى مزقوني وقطعوني إرباً واذا علم البوليس السري أن
أقدامى وطننت الأرض الروسية ألقوا القبض عليّ في مثل غمض الجفن »
- « من أنت اذا ؟ »

- « أنسألي بعد كل هذا من أنا يا متشكوف ؟ - ألا تعرفني ؟ »

فقلت في نفسي لا بد لي من إيقاف اللجنة العاملة في موسكو على حقيقة
الأمر والا كنت خائناً الجمعية التي أقسمت الايمان المغلظة أن أخلص لها الخدمة
والولاء ولكن لم يكذب حول هذا الحاطر في خاطري حتى سمعت ورأيت وقع أقدام

فالتفت واذا بزمرة من رجال البوليس قد مروا بجاني وهم بأثوابهم الرسمية
وواحد منهم يقول « هو ذا هي ! فاني عرفتها ! »

فقطب متشكوف حاجبيه وعبس بوجه القوم قائلاً « ما هذا التطاول ؟ »
فوقف الرجال ذهولاً عند الباب وأدوا للرئيسهم التحية العسكرية ثم تقدم
رجلٌ من بينهم لابس ملابساً عادية فسك بذراع صوفيا قائلاً
« يا صوفيا زاغاروفنا اني ألقى القبض عليك بأمر جلالة مولاي القيصر
لارتكابك جريمة القتل ! »

فصاح متشكوف بهم قائلاً « أتقولون إنها صوفيا زاغاروفنا لقد ساء
والله فالكم »

أما صوفيا فوقفت صامته وقد علا وجهها اصفرار الوجع والتفتت الى الرجل
الذي ألقى القبض عليها قائلة

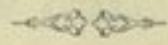
« أهذا أنت يا تسلسكي ؟ - أهذا أنت نفسك يا تسلسكي ؟ - أنت
هو الرجل الذي أنقذته من مخالب المنية كما أنقذت الآن متشكوف ؟ - أهذا
جزاء احساني اليك وشفقتي عليك ؟ - أقبض عليّ لأنني أنقذتك من الاعداء ؟ -
اني أحب متشكوف ولكن حبي له انقلب عليّ علقماً »

فوقف متشكوف مبهوتاً كمن انقضت على رأسه الصواعق ثم التفت اليها وقال
- « لقد أحبيتك ولم أدري اني أحبيت قائلة وسفاكة دماء »

- « أتحقرني لاني فديتك بنفسي وأبقيت عليك وأنت في قبضة يدي ؟ » ثم
التفت الى تسلسكي وقالت له « وأنت يا تسلسكي البوليس السري في بطرسبرج
أنتسى احساني ونعمتي التي أنعمت بها عليك وأنقذتك من الردى ؟ أتلقى القبض
عليّ لاني خلصت العالم من جور رجل دأبه الايقاع باناس ابرياء ونفيهم الى مناجم كارا
في اقاصي سيبيريا الرهيبة و... »

ولكن تسلسكي لم يبق لها مجالاً للكلام فقال لها « الصمت أفضل لك من
الكلام » ثم أمر البوليس بالقبض عليها وسوقها الى الإدارة ولكن قبل أن تمسها
يدهم بسوء أغمى عليها ثم وقعت على الأرض فدنا منها بعضهم لينهضوها ولكن لم

يكن إلا كمثل غمض الجفن حتى رأوا اصفرار الموت على وجهها والدم ينزف من رأسها فوضع أحدهم يده على قلبها ثم قال « لقد قُضي عليها » فادركت حينئذ أن الخنجر الذي زينت به شعرها وأعدته لمقتل رئيس البوليس متشنكوف قد غرز في رأسها عند السقوط وأوردها حتفها ولكن ذلك كان أفضل لها من العذاب الذي كانت تتوقعه لو بقيت حية فلبثت ساخنة أنامل في تلك الملامح التي قد غيرتها يد الموت الرهيبة ثم انثنت مسرعاً من موضعي وما انتصف الليل حتى كنت في طريقي آبياً الى اندرا من حيث أتيت



الفصل الثامن

« عاجزٌ أعْمى ترقى فانقلب »

وقع لي بعد رجوعي أني كنت ذات يوم ماراً في أسواق لندرا عائداً من زيارة صديقين من أصدقائنا الفارين من روسيا فاصطدمت في طريقي على حين فجأة برجل اعترضني في سيرتي فتألمته فإذا هو رجل ضرب رث اللباس محدودب الظهر هزيل الجسد فسقط على الأرض من شدة الاصطدام ثم وقف يتلمس الطريق بعصاه وهو يعتذر الي بالفاظ انكليزية كلها لمن إلا أن فيها تلك اللكنة التي يتميز بها الروسي عن سواه في بلاد الغربية فنظرت الى الرجل وقلت له بالروسية - « من أي بلاد أنت يا رجل ؟ »

فظهرت على وجه الرجل علامات المبور وملامح السرور وقال - « الحمد لله الذي أراني في الغربية رجلاً من مواطني فاني يا مولاي روسي » رمى به نكد الطالع أن يقع عليه غضب الحكومة الروسية لأسباب سياسية فنفثني الى سيبيريا بلاد الظلمات والشقاء ولكن الله قيَّض لي مهرباً تمكنت معه من بلوغ هذه الأمصار

فرق له قلبي لما قاسيت نفسي من ضروب النذل وأنواع النكال أثناء نفيي

الى تلك الأقطار السحيقة ورثيت لماله رثاء من ذاق طعم ذلك العذاب ولكن كنت على علم من سائر الهاربين والنازحين الروسين في لندرا أدر عليهم من تزوتي الطائلة خلا المبالغ الجزيله التي كان الرئيس بتروف مفوضاً بسحبها من مصرف انكلترا لهذا الغرض فكان هو الرجل الوحيد الذي لم أعلم حتى الآن من أمره شيئاً ثم أفادني أنه كان منغياً الى مناجم الغاشي الفضية وانه أتيج له الهرب منذ نحو سنة من الزمان ولما كنت أنا أيضاً روسياً تضرع اليّ أن أصحبه الى منزله وقال ان المكان على مقربة من حيث كنا واقفين

فأجبت سؤلّه وخصوصاً لأنني وددت معرفة شيء من أمره فما سرنا بضع دقائق حتى بلغنا منزله فمعجت لما كان عليه من النظافة ووسائل الراحة مع انه في أقدر أنحاء العاصمة حيث يسكن فقراء القوم ووجدت فيه من المفروشات ما يقربه الناظر وينشرح له الخاطر وكان في وسط الغرفة طاولة مستديرة عليها أقداح الشاي وسيدة رشيقة القوام في ربيع الحياة جالسة على كرسي مريح تطالع كتاباً فلما دخلنا وقفت ونظرت اليّ بنجل وحياء فبادرها والدها بالكلام وقال لها « يا اليونور لقد أحضرت معي صديقاً من مواطنينا الكرام لم يظفرني الحظ بمعرفة اسمه »

فقلت له هو كوروباتكين لأنني رأيت الأمثل اخفاء اسمي الحقيقي الى أن أكون قد عرفت جلية أمر هذا الرجل فتقدمت نحوي الابنة وصاغتني وهي تبسم عن مثل الدرر

ففاتحته الحديث وقلت له مازحاً « أظن أن عيشتك هنا أربع قليلاً من مناجم الغاشي فأجاب باسمياً « نعم ومع اني كما تراني ضريب أعشى لا سند لي في هذه الحياة فان معي شيئاً أدرأ به عني الفقير »

ثم أفادني ان اسمه خورشوف وتناولنا بعد هذا الشاي فقص عليّ أثناء ذلك انه كان في بطرسبرج صقلاً للحجارة الكريمة فسجن ثلاث مرارة على التوالي وحكم عليه بعد ذلك بالأشغال الشاقة المؤبدة في المناجم التي هي وراء اركونسك فتطوعت ابنته لمرافقته الى منغاه حيث لبث نحواً من خمس سنين

وأخيراً راق له أحد كبار الضباط وخصوصاً لما شاهد في ابنته من الشجاعة والمروءة
وعاونه على الهرب فاقنات أثناء هربه بما وصلت اليه يده سواء بالاستعطاء أو
السرقه ولبث على هذا المنوال ماشياً على الأقدام نحواً من ألف ميل حتى بلغ
جبال أورال الشهيرة وهناك تمكن من ركوب السكة الحديدية على طريق نيجني
بعد أن تحصل على جواز وجوده في جيب رجل ميت على الطريق فتمكن بهذه
الوسيلة من السفر عائداً الى أوروبا بعد غياب لم يقل عن ست سنوات ثم انه بعد
رجوعه الى الوطن أصابته حمى شديدة أفقدته البصر فرأى عندئذ القدوم الى
انكلترا خيراً له من من البقاء معرضاً لرؤية البوليس في روسيا

ولما أتى على ختام مقاله تساقطت الدموع من عينيه فكان لكلامه وقع شديد
في نفسي وخصوصاً لأن البلايا التي حلت بي لم تزل منطبعة على ذاكرتي
فأثارني حديثه عواطف الحنو والشفقة وخصوصاً لأن ابنته شاطرته هذه البلايا
وقاسمته سائر الرزايا التي نزلت به أما أنا فلم أخبره اني كنت في عداد المنفيين
بل اختلقت له تاريخاً لحياتي وسألته بعد ذلك عن المواضع التي مروا فيها الى المنفى
والكوارث التي ابتابتهم فوجدت أن قد أصابه نصيب وافر مما يصيب الوفا من
السيئي الطالع الذين يحكم عليهم بالنفي الى تلك الارحاء القاصية ثم وجه بعد كل
هذا خطابه اليّ وقال

« ما حيلتي الآن ؟ فان الدرهم القليلة التي معي ستنفد عما قليل فأصبح
مدقعاً لا أملك شروى تغير » فأجبتة عندئذ انه عاجز عن الاشتغال بصناعة ما
لأنه فاقد البصر فردّ عليّ ولئن كان كذلك فإنه يتمكن من اتقان حرفته القديمة
وهي صقل الحجارة الكريمة لأن اللمس أرشد الى ذلك من البصر وعلى الأخص لأن
حاسة اللمس تكون في العمى أشد منها في المبصرين

فبقيت لحظة وأنا أتفكر في أمر هذا الرجل الذي لم نعلم حتى الآن عنه
شيئاً مع ان أسماء سائر أمثاله مدونة في سجلات اللجنة العاملة ونفدق احساننا
على كثيرين منهم وعليه رأيت أن لا فائدة من اعطائه الاشارة النهلستية وخصوصاً
لأنه أعمى ولكن الرجل تضرع اليّ بلجاجة أن أجد له مركزاً يتمكن به من

الاشتغال بصقل الجواهر فأخبرته اني أعرف رجلاً يهودياً عنده معمل كبير وانه قد يتمكن من الاستخدام فيه فشكرني شكراً جزيلاً ولما هممت بالانصراف وضعت في يد الرجل بضع جنيهات فشكرني على ذلك جزيلاً والشكر ولكنه قال لي انه يفضل الاشتغال بمهنة شريفة على الاستعطاء من الناس فأثر شعوره واحساسه الرقيق في ووعده خيراً ثم خابرت في أمره صديقي اليهودي وهو تاجر شهير اسمه يانكل فرضي باستخدامه أولاً تحت التجربة ولم يمر اسبوع من الزمن حتى كان خورشوف بين عمال الصقل في محل يانكل الشهير

ثم التقيت بالرجل بعد ذلك مراراً فأظهر لي شدة امتنانه ومع كل هذا فاني لم أذكر له ان لي أدنى علاقة بالثورويين الروسيين أو بلجنتهم العاملة في لندرا الا اني عرفتُه وأبنته بفريق من القوم فكان ذلك سبباً لهم لزيارة البيوت والذهاب الى النوادي الاجتماعية حيث كان وابنته موضوع حديث القوم وسمرهم وكان الرجل اذا تكلم لا يفتر عن ذكر أهوال المنفي ومظالم الحكام الروسيين فكان القوم يظهرون عطفاً عليه وابنته تخفياً لهما من كروب النذل ووصمة الفقر وليس ذلك فقط بل انه كثيراً ما كان يقدم خطباً شائعة في المحافل ونوادي الأدب يعدد فيها بلايا النفي فكانت جرائد لندرا تنقل هذه الخطب الرنانة وتعلق عليها من الحواشي والتفاصيل ما لذت لها وراق ومع انه كان يقول انه نفي من روسيا لا اعتباره من أصحاب الأفكار السياسية الحرة فلم يكن يعترف انه من جملة القائلين بلزوم الثورة والأعمال الثوروية ولم يوافق على أعمال الارهاب التي كان يقوم بها النهلست فلئذ هذه الأسباب تمنعت عن افادته اني واحد من هؤلاء القوم وقدمت تقريراً وافياً بشأنه الى اللجنة العاملة فأصدرت أمرها لي بمراقبته لعلها تتف على سر هذا الرجل المكنون .

واتفق في مثل هذه الآونة ان اللجنة الثوروية العاملة في لندرا نفقت عنها غبار الحمول ونشطت همها من عقابها واتخذت من الجراءة والإقدام والنشاط ما لم يسبق لها اتخاذ من قبل فوزعت ملايين من النشرات الثوروية أعلنت فيها الخطة التي عزمتم على اتباعها في اجراءاتها المديثة وهي الضرب على يد العمال

الظالمين وانشاء فروع لجمعية الثورة في أنحاء البلاد الروسية وارهاب وقتل سار من يقوم من الحكام بأعمال البغي والجور والاستبداد وان الغرض من كل ذلك انهاض الهمم الخاملة في طول روسيا وعرضها وامتداد لهيب الثورة في سائر الأصقاع حتى تعلم الحكومة الروسية ان في السويداء رجالاً يقابلون الاستبداد بصارمهم ويفدون الأمة بدمهم

وانتشرت هذه المقالات في روسيا حتى بلغت أقاصي سيبيريا فحصل على أثر ذلك هياج عظيم بين أفراد الأمة وضوضاء بلغت جلبتها عنان السماء وأخذ روح الثورة يمتد الى قلوب الشعب امتداد النار الى المهشم فاهتزت جوانب الامبراطورية كأن تياراً كهربائياً جرى الى أعضائها وارتاعت الحكومة الروسية لذلك ارتباعاً شديداً ووقعت هذه التهديدات على رؤوسهم وقع الصواعق لا يدرون من أين تنحدر عليهم أومنى تصيب منهم مقتلاً وكانوا يعلمون حق العلم أن اللجنة العاملة اذا قالت فعلت واذا أرهبت نسفت وان أخرجت فنكت وأصبحت جواسيس الحكومة في حيص بيص لا يعلمون كيف تمكنت اللجنة العاملة من ادخال مثل هذه النشرات ملايين كثيرة دون أن يتمكنوا من الوقوف على أثر لها في البلاد او على ضبطها عند الحدود فأسقط في يدهم وهاموا على وجههم في الأزقة والشوارع يقتشون المطابع والمنازل والحوانيت والبنائيات التي على سطح الأرض والأفئاق والكهوف التي تحتها فلم يظفروا من كل ذلك بطائل

وواضح بعد كل هذا البيان ان طبع مثل هذه المنشورات في روسيا نفسها بعد هذا الخذر الشديد من الحكومة وانبثاث جواسيسها في كل صقع وناد اصبح محالاً فكان لا بد إذ ذاك من متابعة العمل في لندرا نفسها وعليه أحضرت اللجنة العاملة أحرفاً روسية وصفائي أحرف من روسيا نفسها وقامت تتأبر على العمل في حي من أحياء العاصمة ووكلت الى اثنين من أعضائنا الذين استحضرتهم من الوطن القيام بجمع الأحرف وطبع الرسائل وذلك سرّاً دون أن يعلم احد مكان المطبعة او العمال وكان اسم هذين الرجلين أينوقش وستسكى

وحدث يوماً ما أنني كنت في صحبة الرجل الضرير وابنته فالتقينا بهذين
العاملين وعرفته بهما وكانا قد علما شيئاً من أحوال هذا الرجل مما كنت أقصه
عليها فذهبنا اجابة لدعوتها الى منزلها وجلسنا في الغرفة الامامية أما موضع
المطبعة فكان في غرفة داخلية ولم نذكر قط أمام ذلك الرجل الضرير شيئاً عن
العمل الذي كان صديقنا منقطعين اليه ثم كنت أردد والرجل وابنته من حين
الى آخر الى موضع هذين الصديقين فكانت ابنته اليونورا تغني لنا أغنية بولونية
غرامية ورخيم صوتها يقع على الآذان في هدو الليل فتهنزه أوتار القلوب
وبينا كنا جميعاً ذات ليلة في منزل صديقي المشار اليهما وفي عدادنا ذلك
الرجل الضرير جرى أمر دهشت له غاية الدهشة وذلك أنه بينما كنا على هذه
الحال وردت مذكرة من اللجنة العاملة لصديقي بخصوص شيء يتعلق بتلك
المنشورات فدخلا على أثر ذلك الى الغرفة الداخلية ليتشاورا في أمرها
فلاحت مني إذ ذاك التفاتة الى الرجل الضرير فوجدت وراء رأسه على
نافذة نشرة غير كاملة الطبع يبلغ عدد صفحاتها ست عشرة وهي النشرة التي كان
لوقعا دوي عظيم في سائر الأنحاء الروسية وعنوانها « وان غداً لناظره قريب »
وكان البوليس السري في بطرسبرج وموسكو وغيرهما من المدن حاول جهده ليقف
على شيء من سر هذه النشرة فلم يفلح فلما وقعت عيني عليها رأيت من الخرق
في الرأي أن تكون هذه النسخة معرضة لأعين الزائرين ثم عدت فافكرت انه
لا يوجد في الغرفة سوانا ورجل ضرير لا يبصر وبينما كنت في هذه الهواجس
واذا بأحد صديقي قد فتح الباب الداخلي وأوماً اليّ للدخول والمداولة معها
بشأن التعليمات التي قد تلقاها الآن من اللجنة فلبثت معها نحواً من خمس
دقائق ولما عدنا الى غرفة الجلوس وجدت ان النشرة الثورية قد اختفت
فاعترتني من جرأ ذلك حيرة عظيمة لأن الرجل الذي امامي ضرير لا يبصر
ولم يدخل غريب علينا أثناء مداواتنا في الغرفة الداخلية فهمت أن أذكر
لذلك الرجل شيئاً من هذا القبيل ولكني خشيت أن ذلك يחדش عواطفه وعلاوة
على ذلك فإن في مثل هذا السؤال ما يلقي في نفسه ريبة من حقيقة أمرنا فصمت

ولكنني عزمت على مراقبة هذا الرجل ومعرفة ما اذا كان هو الذي اختلسها واذا كان الامر كذلك فما الغرض الذي يرمي اليه

فلم يمر سوى بضعة ايام حتى توجهت الى المعمل الذي كان فيه الضيرير مستخدماً في صقل الحجارة فوجدت فيه غرفة فسيحة ومكتبة كبيرة مشحونة بأنواع الكتب المختلفة فلما دخلت على الرجل استقبلني بالبشاشة والرحاب ولما جلست قال لي « أظنك قدمت لتري العامل الضيرير الذي أحضرته الي واني أخبرك انه من أمهر الصناع » ثم فتح خزانة امامه وأخرج منها علبة داخلها حجر كريم فسلمني اياه وقال « انظر انقان شغله العجيب » فأخذته واذا هو قطعة كبيرة من الالماس صفراء اللون تتألق فيها الاشعة تألق النور فدهشت من إحكام صقلها وقلت « كم ثمنها ؟ » قال « لأقل من ألف جنيه وستكون هدية من عريس الي عروسه في نحو اسبوع من الزمن » فقلت له « أود أن أرى الرجل مشتغلاً » فأجابني الي سوئي وصعدنا الي الطابق العلوي حيث كان العمال فاقتربت الي الرجل بكل هدو حتى لا يشعر بي فوجدته يصقل حجراً كريماً بقطعة من الماس في يده فلم يلتفت الينا بل بقي مواظباً على عمله وكان كلما أخذ في الصقل يعود فيلمس الحجر بطرف سبابته ليحس اذا كان قد أحكم الصنع

وكان الغرض من ذهابي الي الموضوع المذكور أمرين أولاً معرفة ما اذا كان الرجل حقيقة أعمى البصر وهو ما ظهر لي منه أثناء العمل وثانياً الوقوف على سر تلك النشرة التي اختفت فبعد أن وقفنا امامه لحظة وهمنا بالعودة وجدت رداء الرجل معالماً على الحائط فأومأت الي صاحب المعمل اني أقصد المزاح فوضعت يدي في احدي جيوبه فأخرجت منها أنواعاً متعددة من الكتب والاوراق وفي جملتها النشرة المسروقه فلم أقل شيئاً ولكن أعدت سائر الاوراق الي موضعها وودعت الرجل منصرفاً وأنا أفكر في ما عسى أن يكون غرض الضيرير من سرقة هذه النشرة

وحدث ذات يوم ان الضيرير كان زائراً منزلي صديقيّ العاملين اينوقش وستنسكي مرة أخرى فبعد أن لبث برهة قام وهو يقول « لا بد لي من الذهاب

فان ابتي المسكينة اليونورا لا بد أن تكون في انتظاري وهي وحدها لا أنيس معها ولا جليس يخفف عنها كربة الوحدة والافراد « فأثر كلام الرجل بي عن ابنته تأثيراً شديداً وقلت له اني أصحبك الى البيت فشكرني وتناول يدي ولما بلغنا منزله وجدنا الفتاة في انتظاره فلما شاهدته أسرعت اليه وهي تقبله فجلست أحدثها نحو ساعة من الزمن ثم ودعتها عائداً الى منزل صديقي

ولما بلغت الموضع وجدت مدخله غاصاً بمجموع من المتفرجين وكانت هنالك جلبة عظيمة فاستجليت الأمر فقيل لي ان عدداً من أفراد البوليس قد دخل منزل صديقي فتأسفت كثيراً من انكشاف أمرنا ولكنني كنت على يقين أن الحكومة الانكليزية لا تمنع اصدار منشورات ثورية في بلادها فاخترقت صفوف المعتشدين الى أن بلغت المنزل فسمعت اينوقش يقول للبوليس - « ولكن أحب أن أعرف السبب الذي لأجله تلقون القبض عليّ »

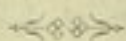
فأجابه البوليس « انا أفدناك حقيقة الأمر » فاجر معنا إذ لا فائدة من المقاومة وكنت إذ ذاك لا أزال على باب المنزل بين الجماهير فلم يرني صديقي فتبعتهما عن بعد وكان غرضي أولاً الذهاب معها الى ادارة البوليس ولكن رأيت بعد التروي ان ذلك قد يكون باعثاً على دخولي في الأمر دون أدنى جدوى لرفيقي فعدت الى منزلي عاقداً النية على حضور الجلسة التي تعقد في محكمة الغد غير أنه حدث ما عاقني عن ذلك وفي المساء تناولت إحدى جرائد العاصمة فاذا فيها تفصيل محاكمة الصديقين وزبدة الأمر ان البوليس السري دخل منزلها فوجد هنالك أوراقاً مالية روسية مزورة وصفائح نحاسية محفورة لطبع تلك الأوراق التي قد وجد منها في المنزل ما تبلغ قيمته عشرين ألف روبل وان العمال الروسيين كانوا قد أبلغوا الحكومة الانكليزية ان الأوراق المالية المزورة قد فشت في روسيا ويطنون أن مصدرها مطابع سرية في لندن

فوقع هذا الخبر عليّ وقع الصاعقة لأنني كنت موقناً كل اليقين أن صديقي بريئان من هذه التهمة التي وقعت عليهما وان الأوراق المالية المزورة مع الصفائح النحاسية إنما وضعت خلسة بيد سرية وبينما كنت في أشد المايمة والذهول خطر

لي بعد بضعة أيام أن أذهب لزيارة معمل الجواهر حيث يشتغل الضرب خورشوف
لعلي أقف على شيء من هذا الغز العجيب فلما بلغت المعمل رأيت صاحبه
نادباً سوء حظه وهو ينادي بالويل والثبور فسألته ما الخبر فأجابني ان
للصوص قد دخلوا موضعه وسرقوا سائر ما عنده من الخلى والجواهر التي تبلغ قيمتها
نيفاً وخمسين ألف جنيه ولما ولجت الغرفة رأيت الكتب مبعثرة في تلك المكتبة
والصندوق الحديدي الذي كان مستوراً وراءها مفتوح وان الذي قد أتى
هذه الفعلة الشنعاء لا بد أن يكون من أمهر اللصوص فخطر لي إذ ذاك أن أسأل
صاحب المعمل عن خورشوف فأفادني أنه لم يحضر في ذلك الصباح وكان بجانبنا
أحد أفراد البوليس السري فقال أنه هو السارق فذهبت وياها الى منزل الضرب
فأفادتنا امرأة هناك ان الرجل رحل مع ابنته فجر ذلك اليوم وانه لا يعود قبل
شهر من الزمان ففتشنا غرفته دون أن يتاح لنا العثور على شيء يتخذ دليلاً على
وجهة سيره فاشتغلت الاسلاك البرقية تنقل خبره الى سائر محطات العاصمة والمواني
البريطانية فأمحى أثر الرجل كأنه شبح من عالم الخيال فتحققت إذ ذاك انه هو
الرجل الذي وضع في غرفة عمال المطبعة الأوراق المزورة والصفائح النحاسية وانه بعث
بعد ذلك بلاغاً بهذا الشأن الى ادارة البوليس من دون امضاء فتخلص بذلك الحكومة
الروسية من المنشورات الثورية في لندرا وفي الجلسة التالية التي عقدتها المحكمة حكم
عليها بالاشغال الشاقة مدة سبع سنوات ولا يزالون حتى الآن في السجن
ولم تغن ايضاحات المحامي الذي أقنأه مدافعاً عنها فتياً

وبعد هذا الخطب عقدت اللجنة العاملة اجتماعاً للنظر في الأمر وبعثت الى
سائر فروع جمعيات الثورة بياناً بهذا الصدد تطلب منها اقتناً أثر الرجل فورد علينا
بعد عدة أسابيع كتاب من جمعية امستردام وفيه البيان الشافي بخصوص هذا
المخاتل ومنه علمنا أن الرجل أبرع لص في سرقة الألباس في سائر الامبراطورية
الروسية وانه كان فعلاً من جملة المنفيين ولكن لا لجرime سياسية بل لسرقة جواهر
من احد المحلات التجارية فذهب الى سيبيريا ولكنه تمكن من الهرب ولما بلغ
لندرا استخدمته جواسيس الروس للوصول الى أمر هذه المنشورات وانه كان

مصائباً بعلة في العينين ولكنه كان يبصر بهما جيداً فترقبته جواسيس لجنة الثورة في امستردام وسلمته للبوليس السري والرجل يحاول بيع الألماسة الصفراء التي هي صقل يده ولما فُتِش منزله ظهر فيه نحو نصف الجواهر التي فقدت من انكارترا فبعثت الحكومة الانكليزية تطلبه فأرسل تحت الحفظ وحكم عليه بعد وصوله الى لندرا بالسجن مع الأشغال الشاقة الى عشر سنوات برد ما بقي من تلك الجواهر الى صاحبها الأول



الفصل التاسع

« احدى حظيات لقمان »

كنت ذات يوم سائراً في شوارع لندرا والجو ملبئذ بالغيوم والرياح تعصف من كل ناحية والضباب قد أرخى أستاره وأنا أفكر في أمر جواسيس السفارة الروسية وما أنته أيديهم من أنواع المكر وضروب الغدر تنكيلاً بنا واذا بسيدة مليحة القد والقوام ماشية ورأيتني الى احدى محطات السكة الحديدية فلما دخلت القطار جلست بأزائي واكن كنت في تيار من الهواجس والأفكار فلم أتنبه لها بل أخذت عددًا من الجرائد التي بيدي وشرعت في مطالعته فما تحرك بنا القطار حتى شعرت بيد لمست ذراعي وصوت يناديني باسمي باللغة الروسية فدعرت من ذلك وتطلعت واذا بالنادي الفتاة

- « يظهر ياسيدي أنك تعرفيني ولكن لم يسبق لي شرف التعرف بك »

- « التقينا قبلاً يا مولاي في بطرسبرج دون أن يكلم أحدنا الآخر »

- « أروسية أنت؟ »

فأخنت رأسها ثم همست في أذني الكلمة التي يتعارف بها الزبلاست فعلمت

انها واحدة منا ثم عادت الى المحادثة فقالت

« سمعت عنك في بطرسبرج وطالعت مقالاتك في المجلات والجرائد

الانكليزية حيث أتيت على بيان المظالم التي تحمل بزعماء الحرية ورجال الإصلاح في روسيا وما امامهم من الشقاء العاجل والموت الآجل في أرباض سيبيريا وما ينالهم من الذل والحيف في السجون فخدمت بذلك جمعيتنا أجل خدمة فهل أجسر أن أطلب منك خدمة تقوم بها لنفسي ؟

- « ما ذا تطالبين مني يا مولاتي ؟ »

« ان خطراً عظيماً يتهدد حياتي فاذا لم تمدالي يد الإخاء والاسعاف وقعت في المهلكة لا محالة وان لي أخاً ينتظرنني في المحطة التالية فاذا أحببت نزلنا سوياً ثم أقص عليك في المنزل تفاصيل أمري وأني لست في ريب انك تكون لي من الناصرين »

فنتظرت اليها مندهلاً وقلت « أتخشين سوءاً أيتها السيدة ؟ »

فنتظرت اليّ قائلة « اخفض صوتك فاننا نحن كلينا قد وقفنا أنفسنا على

خدمة الوطن وأهله وقد نسيت أن أعرفك بنفسي فأنا ماريانا هنتسي »

ولما رأيت من حماسها وجراتها وإخلاصها في سبيل الوطن ما رأيت لاح

لي انها إنما قدمت لأمر سرّي يتعلق بشؤوننا في روسيا فأحبب الوقوف على حقيقة

أمرها ووعدتها خيراً وأني أساعدها جهد الطاقة

فلما بلغنا المحطة المشار اليها نزلنا من القطار ولبثنا برهة ننتظر أخاها على غير

جدوى ولما مللنا الانتظار سرنا مشياً على الأقدام حتى بلغنا منزلاً منفرداً في

ساحة كبيرة لم يكن عند مدخله سوى كهل هو البواب ولما بلغت غرفة الانتظار

نزعت عني وشاحي وجلست على كرسي أنتظر السيدة التي صعدت الى الطابق

العليا بعد أن أقفلت الباب وراءها

فشعرت أثناء جلوسي بانقباض شديد لم أدرِ علته وخصوصاً لما رأيت الغرفة

صغيرة والنور فيها ضئيلاً والمفروشات قديمة العهد ورائحة لا يمكن التعبير عنها

تصاعداً لي أنني وبعد أن لبثت نحو ربع ساعة أنتظر عودة السيدة شعرت بدوار

شديد وصداع في مقدم الجبهة ثم تلا ذلك نوبة سعال وأسرع تنفسي ولما وقفت

شاهدت شيئاً كثيراً من الغبار في أرض الغرفة مما دلني على انها لم تكن ماهولة

منذ زمن قديم فتقدمت الى جانب النار فرأيت هنالك شيئاً كثيراً من الفحم اخذاً
بالاحترق فعلت وجهي صفرة الوجل وتقدمت نحو الباب لآ فتحه فوجدته موصداً
فنظرت الى النوافذ فرأيت جميعها مقفلة ومسدودة سداً محكماً من الخارج ولم
يكن للنار منفذ من موضع ما فأدركت حينئذ اني وقعت في شرك واني في غرفة
الموت فأخذت أضرب الباب بيدي ورجلي فلم أتمكن من فتحه وكان للصدى
وسط ذلك السكون دوي هائل هلع له قلبي ثم أخذت أدور في تلك الردهة كمن
مُس بالجنون ثم أخذت في الصراخ لعل أحداً من المارة يسمعي ولكن ذلك كان
دون أدنى جدوى فمرت علي اثواني ساعات والدقائق أياماً وسمعت فوقي أصواتاً
غريبة وشعرت بشيء وقع في أرض الغرفة التي هي في الطبقة العليا ثم زاد بي
الدوار وشعرت بما أممي من الأشباح يمر مر السحاب ولم يكن إلا كمثل غمض
الجنون حتى اعتراني ارتجاف في الأعضاء ووهن عام في الجسد اصطكت بعده
ركبتي اصطكاً شديداً ثم عرتي هزة غريبة وثقل دماغي ثقلاً شديداً حتى
لم أعد أستطيع تحريك جسدي وبعد لحظة ترنحت ترنج السكران وسقطت على
البساط الذي أمامي ووقعت في سبات عميق لا أعني شيئاً

ولا أدري كم لبثت على هذا المنوال ولكن لما أستيقظت وجدت نفسي متكئاً
على كرسي في الطبقة العليا من ذلك المنزل المنفرد وفي يدي مسدسي وعليه
لطخ من الدم ثم نظرت الى ما حولي فوجدت الفجر قد انبثق وباباً في جانب
الغرفة مفتوحاً الى غرفة مجاورة فظننت نفسي أولاً ان سائر ما جرى لي لم يكن
سوى أضغاث أحلام ولما عاد الي رشدي وقفت ودخلت الغرفة المجاورة فشاهدت
هنالك ما اقشعر له جسدي وهلع قلبي وذلك اني رأيت جثة الفتاة ماريانا التي
قادتني الى هذا الموضع موسدة على الأرض وحولها بركة من الدم وازاء القلب
جرح من فوهة مسدس أطلق عليها وهو يكاد يلامس جسدها لأن بعضاً من
ثيابها كان محروقاً من لهيب البارود وهي جثة باردة لا حراك فيها

فارتعت لهذا المنظر ارتياحاً شديداً لأن الذي يتبادر الى الذهن هو اني
نفس القاتل فلبثت بضع دقائق أتفرس في الجثة وأنا في حال الذهول ثم جلت

في الغرف الأخرى فرأيتها جميعها مفتوحة وخالية من السكان فجاء في خاطري أولاً أن أبلغ إدارة البوليس تفاصيل هذه الحادثة ولكنني رأيت بعد التأمل أن الأمثل السكوت عن ذلك لأنه لا بد عندئذٍ من القاء القبض عليّ أولاً لتوفير الشبهات عليّ في مثل هذه الجناية فنزلت من على السلم وتوجهت إلى منزلي ولما حاولت فتحه رأيت أن المفتاح قد فقد من جيبى فاضطرت إلى احضار رجل كسر القفل ووضع قفلاً جديداً موضعه ولما دخلت المنزل وجدت سائر أشيائي مبعثرة في أرض الغرفة وخزائني مفتوحة فتبادر إلى ذهني أولاً أن ذلك فعلة بعض اللصوص الذين حاولوا سرقة المنزل وأنه لما لم يكن هنالك شيء من الدراهم انصرفوا دون أن يمسوا شيئاً مما في الغرف فلم أرسل بلاغاً إلى البوليس بخصوص هذا أيضاً خوفاً من أن الأبحاث الدقيقة تبين غيابي عن منزلي والموضع الذي كنت غائبا فيه أثناء هذه البرهة

وبعد التأمل خشيت أن يكون قد وقع من جيوبى في ذلك المنزل الذي كدت ألقى فيه حقتي من الأوراق ما يستدل به عليّ فسألت عن الموضع فقيل لي أنه ملك أحد الأشراف وأنه معروض للاستئجار فذهبت إلى هناك ورأيت خادماً جديداً طلبت منه مشاهدة المنزل فسلمني المفاتيح ودخلت الغرف وقلبي لا يزال يخفق من الهلع فلم أرَ هنالك شيئاً من أوراقى ولا أثراً للجريمة فان الجثة كانت قد نقلت ونظفت أرض الغرف من اللطخ الدموية فعدت من حيث أتيت وأنا أفكر في أمر هذا السر العجيب على غير جدوى

ومرت عليّ الأيام والشهور على مثل هذه الحال وأنا أحاول الوقوف على سر ذلك اللغز فذهبت مساعي إدراج الرياح إلى أن انجبت لي الحقيقة من مصدر لم أكن أتوقعه على الإطلاق وذلك أنني كنت ذات يوم في منزلي وإذا بالخادم قد دخل عليّ ويده رقعة زياذة من أحد أصدقائي القدماء واسمه مار فلقيته بالبشاشة والأنس وأخذنا نتجادب أطراف الحديث إلى أن أتيت على ذكر تلك الحادثة فتبسم تبسم رجل له شيء من الإطلاع على دخيلة الأمر فسألته «أتعرف شيئاً من ذلك؟» فضحك وقال أعلم كل شيء وعند جهينة الخبر اليقين فذهلت لكلامه

وقلت « أستحلفك بالله أن تقص علي ما تعلمه من أمري فاني أكاد أذوب
نشوقاً الى ذلك فشرح لي الحديث الآتي

« ورد على اللجنة العاملة منذ عدة أشهر بلاغ لم تقف عليه في حينه لأنك
كنت وقتئذٍ منهمكاً في واجبات جمعيتنا خارج لندرا ومقاد هذا البلاغ ان
مارياناهنشي وهي الابنة التي ذهبت معها الى المنزل المذكور قادمة من بطرسبرج
وهي منتظمة في سلك جواسيس الحكومة الروسية وان الغرض من حضورها الى
لندرا هو أن تتوصل بطريقة من الطرق الى قتل المثري الشهير والثوري العظيم
غورنشا كوف سرجيوس فلاديمير ! »

فالتفت الى صديقي مندهلاً وقالت له « أكان غرضها من القدوم الى هنا

اعدامي ؟ »

فأخى صديقي رأسه وعاد الى ثمة مقاله

« ولما عرف الرئيس بروف ذلك عين عدداً غفيراً من جواسيس اللجنة
للسهر على حياتك ومراقبة سائر حركاتك لكي يكونوا مستعدين لا تقاذك من مخالب
المنية على الدوام دون أن تكون أنت نفسك شاعراً بشي من ذلك وكنت وقتئذ
في عداد من نيظ بهم القيام بهذه المهمة وبينما كنت يوماً سائراً في حراستك مع
صديق آخر وجدناك والسيدة المشار اليها عند المحطة فدخلنا القطار وتبعنا كما حتى
رأينا كما داخلين البيت ولم يكن هناك سوى البواب ولكنه ليس بواباً بل جاسوساً
آخر من جواسيس الحكومة حضر برفقة ماريانا لانجاز الجريمة فلما رأنا اختفي
أما نحن فلم يكن سوى نحو ربع ساعة من الزمن حتى دخلنا وراءك المنزل المذكور
ولما لم يفتح لنا أحد عند قرع الباب كسرناه وأخرجناك من تلك الغرفة المظلمة
وأنت في حال الاختناق والغيوبة وأصعدناك الى الطبقة العليا وبينما نحن وقوف
على الباب اذ سمعنا محادثة أفضت الى مخاصمة بين امرأتين الواحدة منهما ماريانا
وهي كانت مصممة على قتلك والأخرى مادام كريفسكي وكانت ترغب
في الاكتفاء بالحصول على الأوراق التي في جيبك وقد ظهر لهما من حديثهما
وخصامهما انها كانت تودك كثيراً

فاعتراني الدهول وقلت له « ولكن مادام كريشفسكي عضو من جمعياتنا الثورية فكيف ننا مع جواسيس الحكومة علي » فقال - « ان مدام كريشفسكي كانت كذلك ولبئنا نعتقد بصدقها واخلاصها حتى هذه المادئة اتني انجلي لنا بعدها أمرها وانها في الحقيقة من عمال الحكومة الروسية وبعد أن لبئنا واقفين نحو دقيقة من الزمن أغلظت ماريانا الجواب لمدام كريشفسكي فأشهرت عليها هذه المسدس وأطلقتها فدخلنا على صوت تفرقع البارود فذعرت القاتلة وصرخت بأعلى صوتها فاضطرتنا الى تركك هناك خوفاً من حضور البوليس لأننا كنا متوجهين تلك الليلة بمهمة سرية الى ايطاليا فحتى تنفي مادام كريشفسكي عن نفسها مهمة القتل أبقتك هنالك ووضعت المسدس في يدك وخرجت أما البواب فهو كما ذكرت لك داخل في هذه المديسة وهو الذي انتشل من جييك المفتاح ودخل منزلك وأخذ منه ما يهمه من الأوراق ثم تمكنت مدام كريشفسكي بواسطة عمالها من نقل الجثة بعد خروجك من المنزل دون أن يشعر بها أحد ولكننا قدمنا تقريراً فيه البيان الشافي الى اللجنة العاملة فقررت اللجنة الحكم عليها بالاعدام »

- « ولكن أين هي الآن ؟ »

- « في بروكسل ولكن أنت تعلم انه متى صدر حكم اللجنة العاملة فلا بد من انفاذه »

فتعجبت من ذلك كل العجب ثم ذهبت مع صديقي للتنزه في بعض حدائق العاصمة فاشترينا عدداً من أعداد جريدة التيمس الشهيرة وفيما كنت أقلب صفحاتها عثرت على تلافيف من مراسلها في بروكسل فيه ما يأتي « من الأخبار اتني اهتزت لها أنحاء هذه المدينة هو أن السيدة الروسية مدام كريشفسكي المشهورة بالغنى والجمال الرائع وجدت هذا الصباح مقتولة في فراشها بطعنة سكين في القلب ولم يتمكن البوليس من اقتفاء أثر الجاني »

فتبادلت وصديقي نظرات شفت عن معنى عميق ولكننا لم نفه بهذا الخصوص

بكلمة واحدة

الفصل العاشر

« ما تكن صدور العواني »

قصصت عليك يا عزيزي الطيب أن ضميري يبكتني على ما صدر مني من الجرائم وما اقترفت من الذنوب في سبيل الذود عن حقوق أمي والأخذ بثأر أبي وأمي وشقيقي ولكن أرسخ هذه الذنوب صورة في مخيلتي وأشدّها وزراً هو ما أضطرتني الظروف والأحوال السياسية الى القيام به كما أقص عليك تفصيله حدث أن سيدة روسية بالغة منتهى التهذيب والعلم تسمى مدام شنكوف نزلت في لندرا قادمة من روسيا ولم تلبث فيها ردها من الزمان حتى أصبحت من أشهر سيدات المدينة تحتال في قصور الأشراف والأمرء وتميس في محافل الحظ واللهو كفضيب من البسان اذا تكلمت كان حديثها درراً واذا كتبت مهافت القراء على مطالعة مقالاتها في المجالات والجزائد فصار من هم لجنة الثورة الوقوف على سر هذه السيدة لأن مظاهر الثروة التي كانت تلوح عليها والنفوذ الذي أحرزته في قليل من الزمن جعلنا في ريبة من أمرها خشية أن تكون من عمال الحكومة الروسية وهي ريبة بلغت عندنا حد اليقين لأنه لم يطل أمرها حتى نشرت مقالات رنانة أتت فيها على اطراء القيصر وعماله اطراءً شديداً فأصبح من ههنا حينئذ بث العيون والارصار عليها من كل جانب

وبعثت اللجنة الى سائر الفروع الروسية تستجلي أمر هذه السيدة فلم يردنا بشأنها ما يشفي الغليل ولبثنا كذلك في حدس وتخمين حتى وردنا كتاب من فرع الجمعية الثورية في خيف مفاده أن السيدة التي اتهمت اسم مدام شنكوف هي في الحقيقة امرأة رجل هو رئيس بوليس تلك المدينة وانها كانت في الماضي سبياً في نفي كثيرين أخصتهم من طلبة العلم في بطرسبرج بينهم نفر من خيف نفسها ولما خشيت بعد ذلك العودة الى خيف أو البقاء في بطرسبرج خفي أثرها حيناً من الدهر فأرسلنا صورها مأخوذة من إحدى المجالات الانكليزية وبعثنا بها الى خيف

فورد البيان الشافي أنها هي نفس المرأة وان قدومها الى لندرا لم يكن الا للانخراط في زمرة الجواسيس

وكان أمر رقيبها ضربة لازب علينا لان اللجنة العاملة كانت قد عقدت النية على اتيان ضربة ترقص لها عجايز وائل ولا نقل في نتائجها وخطارتها عن الضربة التي أوردت القيصر اسكندر الثاني حتفه - تلك الضربة القاضية التي كانت على روسيا والعالم المتمدن بلية طامية ولكن عمال الظلم في الحكومة والاستبداد الأثيم والجور الفاحش الذي وقع على رفاقنا في روسيا اخرج صدور اللجنة العاملة في لندرا حتى أعمى ذلك بصيرتها فعدت النية على اهلاك القيصر اسكندر الثالث كما سأفصل لك كل ذلك فيما يلي ولما كان وجود مثل السيدة مدام شنكوف في عداد جواسيس لندرا خطراً كبيراً على أعمالنا السرية قررت اللجنة مراقبة كل حركة من حركاتها وأناطت هذه المهمة بي لعللي أقف على الغاية التي لتوخاها السيدة المشار اليها في قدومها الى انكلترا والاقامة بين ظهرائي أهلها لأنه أصبح المقالات التي نشرتها في جرائد لندرا وقع شديد فسفقت أقوال الكتبة الذين يزعمون أن سيبيريا بلاد الشقاء وأن سجونها جحيم أرضي وأنكرت على الكاتب الشهير جورج كنان ما أتى على ذكره من أهوال تلك السجون والديار التي تقشع لها الابدان

فاضطرت للوصول الى هذا الغرض للتتكبر فاستأجرت منزلاً جديداً في العاصمة وانقطعت عن زيارة اللجنة العاملة في مركزها وكانت اذا اضطرتني الحال الى مذاكرتهم في أمر اجتماعنا في ناحية أخرى من نواحي لندرا حتى لا يكون لأحد سبيل للمظنة بي فاتخذت اسم شارل لانكور ولما كنت أحسن التكلم بالفرنسية جيداً لم يشك أحد في اتحالي هذه الجنسية ولم يمر طویل من الزمن حتى تعرفت بدمام شنكوف وأصبحنا صديقين حميمين فكنا نذهب أكثر الاحيان الى الملاهي والاجتماعات سوية الى أن دعانا يوماً ما أحد الاصدقاء أن نصرف بضعة أيام مع أصدقاء آخرين في قصر خاص له في جوار لندرا وبينما كنت جالساً واياها ذات يوم تحت الأشجار الغضة والأغصان

النضرة في جوار القصر نظرت اليها باندهال وقلت لها « يا نينا » وهو اسمها الأول « انك أجمل امرأة رأيت في حياتي فان لك عيوناً ساحرة وجفوناً تشق سهامها القلوب »

ف نظرت اليّ باندهال وقالت « مادعاك الى هذا التمليق ؟ »
« دعاني الى ذلك يا مولائي جمالك الرائع وحسنك الذائع الصيت وأنت تعلمين أننا نحن الباريزيين أخبر أهل الأرض بملاحح الحسن وبتدبع الجمال »
« لا بد لي أن أخبرك يا مولاي اني متزوجة منذ نحو سنتين ولي زوج . . . »
« فلم أمهلها لتنجز مقالها ولكن أجبتها « ان هذا لا يهمك كثيراً »
« كيف تعلم ذلك ؟ ومن أخبرك بالامر ؟ »
« لا أحد ولكن لا سبيل لك الى نكرانه فاني أراك غير سعيدة »
« لا أظنك مخطئاً في ما تقول ولو أخبرتك حقيقة أمري لأخذ منك العجب مأخذه »

ثم صمتت لحظة بعد ذلك وأخذت تلاعب الزهور التي أمامنا على جوانب المياه فنظرت اليها واذا هي بالحقيقة الجمال وقد تجسم فان احمرار خديها كان كالجلنار ولون ذراعيها وعنقها يشف عن بياض ناصع وقامتها هيفاء كالرديني فأحنت رأسها نحوي وهي لا تشعر بذلك كأنها في حلم ثم لبثت تلاعب الأزهار فلم أتمالك أن أثبت لها شيئاً من هيامي ووجدني وبعد حين من الزمن شرحت لي حقيقة أمرها وأنها متزوجة برجل يشغل مركزاً مهماً في الحكومة الروسية ولكنها لم تذكر أن اسمه مرلوف ولا أن موضع اقامته في خيف كما كنت عالماً ولكنها اكتفت بقولها ان عيشتها معه لم تكن راضية نظراً لما كان عليه الرجل من شراسة الأخلاق واخلاف عهدها فاضطرت الى تركه والتقدم الى انكأترا حيث لا أعداء لها ولا حساد يشون بها ولما أتت على ختام حديثها خنق صوتها بالبكاء وجرت من مقلتيها العبرات

فحاولت جهدي ارضاها وقلت لها يلزم أن تتناسى حياتها الماضية وأن تستمتع بما أمامنا من جمال الطبيعة وشذا الزهور وتغريد الطيور

فتفرست في وقالت « أصبت ولكنك لا تدري أحوال الروسيين في الهيئة الاجتماعية فانك رجل فرنساوي تعيش تحت سماء الحرية »
« اني أتوق كثيراً الى معرفة شي من أحوال الروسيين وخصوصاً أقوام النهلست لأنني قد سمعت وطالعت شيئاً كثيراً عنهم »
« لماذا نسألي عن النهلست وكيف يتأني لي أن أعرف شيئاً عن هؤلاء القوم الذين دأبهم الدسائس والمكائد »
« ولكنك روسية وكل روسي يعرف شيئاً عنهم »

« لقد أصبت في زعمك ولا بد من عذر لهؤلاء الاقوام على ما يأتون من الجرأة والدسائس فانك اذا أسأت الى رجل أو ظلمته أو نفيته اذا تظلم أو سددت فاه اذا تكلم أو ضربته اذا تألم ثار في رأسه أخيراً ثائر الغيظ والحنق وقد يحمله الياس على طعنك أو رميك بقنابل الديناميت واذا نظرت الى الحقيقة نظر العاقل وجدت الحكومة الروسية معملاً هائلاً للقتلة وسفكة الدماء من سائر طبقات القوم »

فعجبت من كلامها كل العجب وخصوصاً بعد الذي طالعت من مقالاتها في الجرائد والمجلات الانكليزية مما كانت تشد به أوازر الحكومة الروسية فتطلعت اليها بلهفة وقلت

« أنتحسبن اذا عمل هؤلاء الثورويين ؟ »

« اعلم أن الروسي لا يجسر على الاجهار بأرائه على رؤوس الاشهاد ولكنه لا بد لي من الاقرار لك ان سائر هذه الامور لا تنهني الآن لأنني قد نفيت من بلادي »

فقلت في نفسي ما أشد دهاء هذه المرأة فانه يكاد يفوق جمالها فتأملت ذلك الموقف وما كانت عليه الطبيعة من المهابة والجمال ولا سيما لأن الشمس أشرفت على المغيب وأخذت الطيور تأوي الى أشجارها للمبيت ودهشت مما لهذه المرأة من طلاقة اللسان وجرأة الجنان وفيما أنا غارق في أبحر الأفكار اذا بالسيدة قد أخرجت من جيبيها لفاقي تبغ أشعلت منها واحدة وقدمت لي الأخرى

قبلتها شاكرًا ثم عدت الى حديثنا وقلت لها
« ولكن طالعت يا مولائي بعض مقالاتك في جرائد العاصمة فوجدتك تحامين
عن الحكومة بحمامة شديدة »

فتبسمت وقالت « اني أنشر أحيانًا مقالات في مجلات القوم ولكن أنت
تعلم ان الكاتب لا يسطر على الدوام حقيقة أفكاره الحرة فانك لو قطنت روسيا
حيناً من الزمن لأدركت شدة الخطر الذي يهيق بمن يجسر على انتقاد أعمال
الحكام »

وفيما نحن كذلك واذا بساعة القصر تنبهنا أن قد آن وقت العشاء
فدنوت منها وقبلتها فلاعبت وجهي بيدها وهي تبسم وعدنا الى منزل مضيفنا
وبينما كنا جالسين على مائدة الطعام في صباح اليوم التالي أتى الخادم الينا
بكتب البريد وكنت جالساً حذاء مدام شكوف فوضع أمامها كتابين أحدهما
بخط رفيع يدل على انه كتابة سيدة والآخر في غلاف مربع عليه علامة الحكومة
الروسية الرسمية وهي نسردو ~~الروسين~~ وطابع من طوابع الحكومة فلما شاهدته طوته
ووضعه في جيبها على عجل

وفي المساء بينما كان المدعون في إحدى القاعات اجلت نظري فلم أجد السيدة
الروسية بينهم فسألت عنها إحدى وصايف القصر فعلمت أنها لبست وشاحها
وقبعتها وذهبت للتنزه على جوانب النهر فتبعتها وكان الوقت صيفاً والسكون سائداً
على الطبيعة حتى أن أوراق الاشجار لم تكن تتحرك فانخذت طريقاً أخصر من
التي جرت عليها وذلك اني سرت في مرج صغير أمام القصر تحف به الاشجار
الباسقة والزهور العطرة ولما بلغت منتهاه سمعت أصواتاً فعرفت صوتها وكانت
تتكلم بالروسية فسمعتها تقول

« ماذا يجب عليّ فعله الآن ؟ »

فأجابها رجل بقوله « افعلي ما يترتب عليك فعله فقد وردت عليك اليوم
التعليمات من وزارة الداخلية »

« كان الأولى بها السكوت عن ذلك فاني قد أنجزتُ أعمالي »

« اذا كان الأمر كذلك فاخبريني إذأما هي الدسيسة الجديدة؟ »
« اني لم أنجز تقريرى حتى الآن ولكن يجب عليك أن تعلم اني في خدمة
الحكومة وليس في خدمتك أنت »
« اعذريني يا مولائي على هذا التطاول فان محبة الوقوف على الأخبار
حملتني على ذلك »
« ان محبتك الوقوف على الأخبار تضرني وتنفعك فانك ستذهب بعد ذلك
رأساً الى الجنرال اسكافوف وتبيعه هذه الأخبار ولكن يجب عليك أن تفقه ان
المرأة التي تكلمك ليست دونك دهاء »
« اعذريني يا مولائي ولكن أوكد لك ان أسرارك تكون في أمن حرير »
« كما كانت عند ما أطلعتك عليها في باريز بعد جد النهار وسهر الليل حتى
اكتشفت المكيدة فكانت نتيجة كل ذلك انك ذهبت وطيرت التفصيل على
جناح البرق فرقاك الامبراطور ورصع صدرك بالوسامات ونفحك بالدنانير أما
أنا فلم تكن نتيجة اتعابي سوى الشقاء »
« ولكن ما ضررك فانك زوجتي »
فأجابته بنغمة كلها ازدراء واهانة
« ألا تزال تقول اني امرأتك وقد افترقنا وليس بيننا بعد ذلك أدنى صلة
فبأي حق نفتني أنري الى هنا ألا أقدر على متابعة هذه الأعمال الممقوتة
دون أن تكون لي شريكاً بها؟ »
« ولكني أساعدك يا نينا وأعتقد أنه اذا اجتمعت كلمتنا على أمر سهل
علينا انجازة »
« ان ذلك لمن المحال أما ما يتعلق بزواجنا فانت أدري اننا تزوجنا ولكننا
لم نعش معاً قط »
« ألا تذكرين اني خلصتك مرة من الموت؟ »
« أليس ذلك واجبات الزوج لزوجته ولكن مالنا ولكل هذا الحديث فانه
لا بد لي من العودة الى القصر فان سيدته في انتظاري »

« يجب عليك أولاً أن تبقى هنا الى أن آتي على نعمة مقالي فانه لا بد لك
من العودة الى روسيا للاقامة معي هناك »
« اذا كان الأمر كذلك فأخبرك يا مرلوف اني أكرهك كرهاً شديداً
وان الموت لأسهل عليّ من مسا كنتك »
فظهرت على الرجل علامات الغضب وصاح بها بأعلى صوته
« أهذا جوابك لي - ؟ اني والله لا أقتاتك »
« ان يدك لا قصر من ذلك »

« أطلب منك الآن أن تظهر لي سر هذه المكيدة الجديدة التي قد
اكتشفتها وإلا فاني أقسم بالله أن أدق عنقك بيدي في مثل غمض الجفن ثم
أرمي بك الى هذا النهر »

ثم تلى ذلك صوت عراك سمعت في خلاله نينا تقول
« دعني أيها الجبان فقد خنقتني - دعني - الي يا أهل الغوث »
فقدمت اذ ذلك من موضعي وأنا أمشي الهويناً حتى لا يسمع لوقع قدمي
صوت فرأيت من خلال الأغصان الضابط مرلوف واذا هو رجل يناهز الخمسين
من عمره صغير العينين قصير القامة كبير الشدقين على وجهه ملامح الشراهة والطمع
لأن مبدأه الوحيد في العالم هو عبادة المال سواء كان من أعدائه أو أصدقائه
وكثيراً ما استخدمه النهلست لتقضاء أوطارهم من الحكومة الروسية وهو لا يزال
في خدمتها ولما شاهدته وجدته منحنياً فوق امرأته ويدها في عنقها وهو يتهددها
لكي تبيع له بما وقفت عليه من الأسرار وبينما كنت على وشك العودة الى مخبئي
سمعت مرلوف يسب ويلعن ثم صراخ امرأة مزرق ككبد الجو ثم سقوط
جسم في الماء فتطلعت واذا ليس هناك من رجل أو امرأة فنظرت الى الماء واذا
على سطحه حلقات تتعرج تحت أشعة القمر ولم يكن إلا كمثل غمض الجفن حتى
هدأ اضطراب المياه فوقفت حائرة لا أدري ماذا أفعل ثم أخذت أسير على
ضفاف النهر وأنظر الى الأنجم والأشجار التي على جانبيه ولما لم أر شيئاً أسرع
بالعودة الى المنزل وأعضاني ترتجف مما سمعت ورأيت

ولقد كان لفقدان مدام شنكوف في ذلك القصر المنيف في ضواحي لندرا ضجة وصخب في الجرائد دون الوقوف على شيء من الحقيقة ولما رأى الزائرون ما آل إليه أمر هذه الدعوة انصرفوا فرأيت الأمل أن أكون في جملة المنصرفين لأن المكث أصبح حملاً ثقيلاً على الزوار والضيوف ولكن تمكنت قبل عودتي من فحص سائر أشياء السيدة لملي أقف على سر من أسرارها فذهبت اتعابي ادراج الرياح

وعند عودتي الى لندرا قدمت تقريراً مفصلاً بما جرى الى اللجنة العاملة فأمرت بإرسال كتب الى سائر فروع لجان الثورة لمعرفة ما اذا كان الرجل مرلوف وامرأته لا يزالان في قيد الحياة واذا كان الامر كذلك فما مبلغ علم المرأة من المكيدة التي كنا على وشك انجازها حينئذ وهي نصف قسم من قلعة شلسبرج وتخليص سائر المسجونين السياسيين هناك فكان يتعم علينا اذ ذلك معرفة ما اذا كان هذا الظابط وامرأته لا يزالان في قيد الحياة وهل يعلمان شيئاً من هذه المكيدة الجديدة وأرسلنا صورة الرجل وامرأته الى سائر فروع الثورة دون أن تتمكن من الحصول على خبر يوثق به

ولبثت مع بعض الاصدقاء نرقب منزل السيدة التي دعت نفسها مدام شنكوف نهائياً ولبثت نراوحو في العمل ونرقب الجيرة بكل حرص واعتناء لأن الاساليب التي كنا نسير عليها بديعة في بابها وعلى غاية الانتظام والدقة حتى أنه متى أصدرت اللجنة العلامة امرها برقب أحد كان لا خلاص له ولا مناص ولم يكن بعد هذا سوى حين من الزمن حتى وجدت جثة الظابط مرلوف طافية على وجه الماء ولما تأكدنا أنها بالحقيقة جثته وان امرأته لم يظهر لها أثر وجهنا اهتمامنا الى انحاء أخرى من جوار مدينة لندرا وحدث أنه بينما كنت برفقة أحد الأصدقاء صباح يوم تمشى على ساحل البحر في إحدى قرى انكلترا التي على الشواطئ شاهدنا عن بعد شيخ امرأة ذاهبة الى القرية من جهة الشاطئ فناملتها جلياً فاذا هي السيدة مدام شنكوف فكدت أظن فرحاً لهذا الاكتشاف وأخذنا تقتفي خطواتها حتى رأيناها دخلت نزلاً هناك معروفاً بنزل الملكة منتحلة اسم مسز وليمس

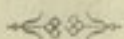
وبعد هذا الاكتشاف بساعتين كنت بين النازلين في ذلك النزول
فاستأجرت غرفة في ذات الطابق الذي كانت فيه نينا وعقدت النية على لزوم
العجلة في العمل وبعد العشاء رأيتها داخله غرفتها فوضعت في جيبى منديلاً وزجاجة
صغيرة وذهبت تَوَّأ الى غرفتها ودخلتها دون قرع على الباب فوجدتها مستلقية
على ديوان من الحرير فقلت لها

« ها اننا ياسيدتي فقد التقينا مرة أخرى »

فلما رأيتي ذعرت ذعراً شديداً واحمر وجهها من شدة الغيظ وتأملت في
قائلة « لا تظن أيها الرجل اني كنت جاهلة أمرك قط فانت النهلستي المعروف
غورنشا كوف سرجيوس فلاديمير فاخرج من حضرتي وإلا قرعت الجرس
ودعوت الخدم لاخراجك بالقوة

ف نظرت اليها باسمياً وقلت لها « انك لن تفعلي ذلك يا سيدتي » ووقفت
بينها وبين الجري ولم يكن الا كمثل نمض المفن حتى أخرجت المنديل وسكبت
عليه شيئاً من الزجاجة التي في جيبى ووضعت على أنفها وفيها معاً فحاولت التملص
مني ولكن لم يكن سوى دقيقة من الزمن حتى استلقت على الارض وقد شبهت
شبهة طويلاً وفقدت الشعور ثم فتحت خزائنها فوجدت هناك كتباً رسمية من
وزارة الداخلية وصوراً فوتوغرافية فوضعت سائر هذه الاشياء في جيبى ولما
همت بالانصراف خطر لي أنه قد يمكن أن تكون قد خبأت أهم الاوراق في
طيات ثوبها ففككت أزرار صدرتها واذا برزمة قد برزت على شكل ثدي اصطناعي
طيبها مذكرة فيها أسماء أعضاء اللجنة الثورية في لندرا وأسماء مشاهير أعضاء
الجمعية وفي صدرهم اسمي أنا نفسي وبعد قراءة الورقة وضعتها في جيبى ثم نظرت
في وجه السيدة واذا لونه قد علته صفرة الموت فوضعت يدي على قلبها واذا به
ساكن لا حركة فيه على الاطلاق فعلمت اذ ذلك أني قد نشقتها جرعة كبيرة
من الكلوروفورم أودت بحياتها فوقفت أمامها لحظة مبهوتاً وقوف القاتل أمام
المقتول فترنحت من شدة الأسى ترنخ السكران وكدت أسقط على الارض ولكن
تجلدت وخرجت من الغرفة دون أن يشعر بي أحد من الناس وحتى الآن لانزال

رائحة الكاوروفورم واسمه في مخيلتي جزاء هذه الجناية العظيمة التي قد اقترقتها



الفصل الحادي عشر

« صعقات موسى يوم ذلك الطور »

لابد لي الآن من أن أقص عليك يا طيبي تفاصيل تلك الحادثة العظيمة التي دوت لها أرجاء أوربا واشتدت لوقعتها أنحاء العالم المتمدن تلك الجناية العظيمة التي لا تزال حتى الساعة تقلق ساعات نهاري وهدو ليلي بعد هذه السنين الطويلة ألا وهي محاولة اغتيال القيصر اسكندر الثالث والقيصرة حين سف قطارهما الملكي وبصحبتهما نخبة وزراء الامبراطورية وجملة رجال الأمة وزهرة شبان الأشراف وقد لبث تفصيل هذه المكيدة حتى الساعة طي الحفاة والكتان اذ لم يتسن لاحد الوقوف على أسرار هذه اللديسة التي أدهشت أدهى الجواسيس وأعظم السياسيين ونخبة الكتاب وكان من أمرها أن نحواً من خمسين شخصاً من السيدات والرجال الأبرياء حكم عليهم بالنفي الى مناجم الفضة من أقاصي سيبيريا وهم برآء من كل جنائية بينما أن الجانين الحقيقيين تملصوا ولم تتمكن الحكومة بعد الجهد الجهد والعناء الشديد من الوقوف على شيء من أثرهم

ولما لم يكن بد من التحفظ إتمام والحذر الشديد في القيام بهذه المكيدة التي يصح أن يقال عنها أنها أعظم وأجراً مكائد النهلست نقلت اللجنة العاملة نادي الثورة الى قهوة حقيرة من شارع لندرا خوفاً من جواسيس السفارة الروسية فانعقدت الجلسة الرسمية في منتصف الليل وكان الرئيس بتروف قد عاد ذلك النهار من بطرسبرج فجلس في كرسي الرئاسة تحف به أهم الاعضاء الذين كنت في صدرهم ولما انتظمت الحلقة قام فينا قائلاً :

« أيها الاخوان لقد جان الوقت أن نضرب ضربة قاضية يرن صداها في سائر أرجاء أوربا وتملح لها قلوب الأرضين طرّاً فهل أنتم موافقون على ذلك ؟ »

فأجابه سائر الاعضاء بالاجماع دون ان يتخلف أحد و بصوت واحد
- « بلى أيها الرئيس أنا أمّعة معك في ما نقول »

فعاد بتروف الى الكلام وقال

« أما الآن وقد خمدت أنفاس تلك الخائنة نينا التي اتهمت هنا اسم مدام
شكوف ولم يعد من رقيب نخشى سطوته ونيمته فاني أفيدكم أن القيصر والقيصرة
سيذهبان بعد اسبوعين من تاريخ هذا اليوم الى أمستردام »

ثم أخرج بعد هذا من جيبه خريطة روسيا وعليها خط يرسم سفر العائلة
الامبراطورية في هذه الرحلة ملوناً باللون الأحمر ومنه يستدل أن القيصر يسافر من
موسكو وريازان ونيبوف ونيكارسك حتى ساراتوف ومن هناك يسافر بحراً على
ظهر باخرة تمخر نهر فولكا ثم عاد بعد هذا الى الكلام فقال

« فترى مما تقدم أيها الرفاق أن القطار سيمر في طريقه على خطوط ثانوية
لا أهمية كبيرة لها ولذلك يقول اخواننا في بطرسبرج أن الضربة التي نصمم على
اجرائها يجب أن تكون في هذه الخططة الثانوية لانها لا تكون تحت رئاسة
الجواسيس والعمال كالحطوط المهمة »

فحدقت اذ ذاك بالرئيس وقلت له

« ما هو نوع الضربة التي نروم القيام بها ؟ »

فوضع بتروف يده على جبينه غارقاً في أبحر التفكير ثم أجاب

« هذا ما اجتمعنا لاجل الاقرار عليه في هذه الليلة ولما كان يتعذر على

رفاقنا في بطرسبرج القيام بهذه المهمة العظيمة لكثرة العيون والارصاد عليهم ترتب

على أحدنا هنا القيام بهذه الضربة ومنى سافر الى عاصمة الروس وجد هنالك من

اخواننا من يكون له عوناً في انجاز عمله »

فقام أحد الحضور وقال

« قد تكون الوسيلة الفضلى في ذلك وضع ديناميت تحت الخطوط الحديدية

كما فعلنا في موسكو »

ثم وقف آخر وأبدى رأيه مفضياً على هذا الرأي بقوله

« أو نسف أحد الجسور (الكباري) كما فعلنا في البرابغراد »

فتأمل فينا بتروف وقال

« أو نسف الآلة البخارية التي نتقدم القطر مثلاً ولكن كل هذا لا يجدي نفعاً
إذا الطريقة الفضلى التي نعول عليها في بلوغ أمانتنا هي أن تحصل الضربة في نفس
القطار وما سوى ذلك عبث »

وبعد ذلك أخرج بتروف من جيبه خريطة أخرى رسم عليها شكل القطار
الملكي وحجمه وسائر ما يتعلق به وأسماء الوزراء والأمراء الذين يصحبون القيصر
في هذا السفر ثم عاد إلى إيضاح التفاصيل الشافية التي من شأنها بيان كل خطوة
في تحقيق هذه المكيدة بياناً لم تبق معه حاجة إلى زيادة

بقي علينا بعد كل هذا الحكم في أمر آخر خطير وهو تعيين الرجل الذي
يناط به القيام بهذه الضربة الرهيبة فاتخذنا أولاً أحد أعضاء اللجنة العاملين
يبد أنه بعد مداولة طويلة بهذا الخصوص أقرت الجمعية على وجوب القاء القرعة
وبعد سحبها وقف الرئيس وقال

« أخبركم أن القرعة وقعت على أحدنا غورثشا كوف سرجيوس فلاديمير »
فلم أتكلم ولكني تبسمت واكتفيت باحنا رأسي وبعد ذلك وقفنا للانصراف
وقد تبليج الصباح

وبعد هذا بيضعة أيام بلغت مدينة بطرسبرج بعد انتصاف الليل بساعتين
وذلك في شهر سبتمبر وكان الجو متلبداً بالغيوم والغيث يهطل مدراراً وأنوابي مبللة
من تساقط الأمطار والريح ثور عاصفة وأعضائي متيبسة من الجلوس خمسة أيام
متواصلة في قطار مزدحم بالمسافرين فأخذت أسير في شوارع المدينة قاصداً
منزل بعض الأصدقاء الذين سيكونون لي عوناً في إنجاز مهنتي فلما بلغت جوار
نزل كبير من نزل العاصمة شاهدت على ضوء مصباح الشارع شبحاً يجري على
مقربة مني فتأملته فإذا هو رجل قصير القامة كبير الرأس براق المقلتين نظر إليّ
نظرة حادة ثم سار في طريقه لا يلوي على شيء

فلم يعترني من ذلك أقل خوف أو قلق لأنه كان يبدى جواز رسمي من

الحكومة ذكر فيه ان اسمي ايغان ايغانوفتش أحد الرعايا الروسيين مولود في
أودسا ومقيم حالياً في مونيخ واني عائد الى بطرسبرج للتفتيش على شغل يقوم
بأودي وفضلاً عن كل ما تقدم فاني كنت متكرراً أشد التكرار إذ قد حلقت
لحيتي وشاربني وتزيت يزي غريب كنت معه في مأمن من اكتشاف حقيقة
حالي حتى ان جواسيس السفارة الروسية في لندرا لورأوني في تلك الحالة لم تداخلهم
رية في أمري ولذلك كنت في غاية الأمن والاطمئنان

وما لبثت حتى بلغت عطفة في الشارع دخلت منها الى زقاق ضيق الى أن
بلغت الشارع المقابل فوقفت أمام بيت بجانب حانوت كبير وقرعت الجرس فلم
يكن سوى مثل غمض الجفن حتى فتح الباب بيدخفية فدخلت وصندوق بيدي
فوجدت نفسي في موضع ظلامه داس تكاد تلمس ظلامه باننا ملك فوقفت
حائرًا لا أدري كيف أسير وماذا أفعل وبينما أنا كذلك اذا بيدر وضعت على
كتفي وصوت رجل بجاني يقول لي همساً

« أهلاً وسهلاً بصديقنا الذي بلغ الآن بطرسبرج تقدم واصعد السلم الى
الطابق العلوي حيث أعددنا لك سائر وسائل الراحة »

فلما بلغت المنزل في الطابق العلوي وجدته رحيباً جميلاً فاجلس في غرفة
الجلوس حتى عرفني الرجل بنفسه فاذا هو الموسيو كولدبرغ أحد طلبة الطب في
جامعة بطرسبرج ثم عرفني بصديق له هناك وهو صاحب مخزن المولى وفيما نحن
كذلك اذا بسيدة هيفاء قدأقبلت علينا فقال لها كولدبرغ « أحضري يا عزيزتي
أولغا الطعام لضيفنا لأنه لا بد أن يكون جائعاً »

فأرسلت الى السيدة نظرة صرخت بعدها صرخة الدهشة والابتهاج لأنها
كانت شقيقتي أولغا بعينها فلما تفرست في لحظة عرفنتي وجرت الي كالسهم
المنطلق فطوقت عنقي بيديها اللطيفتين ولبثنا كذلك دقيقة من الزمن وكلانا يكاد
يغمى عليه من شدة الجذل وكانت شقيقتي لم تعلم حتى الآن بيقاني في قيد الحياة
ظانة اني ميت أو لا أزال في سيبريا لأنني كنت أتعمل أساءاً مختلفة فجلسنا نقص
على بعضنا حديثنا وما جرى لنا أثناء هذا الغياب الطويل فعلمت أنها سجت في

قلعة بطرس وبولص بضع سنوات بحجة أنها من صاحبات المبادئ السياسية المضرة بحقوق الأمة والدولة ولكنها لم تحاكم قط بل لبثت هذه السنين على هذه الحال الى أن أصيبت بالحمى التيفويدية فأخلى بعد ذلك سبيلها فخرجت الى العالم وهي تحصل قوتها بشغل يديها وبعد هذا ببرة وجيزة من الزمن تزوجت بكولدبرغ الذي هو أيضاً من أعضاء الجمعية وادخلت نفسها بين عداد النهلست لتأخذ بثأرها عما لحق بها من الاهانة والظلم أثناء هذه السنين الطوال فكانت من أجرأ الاعضاء وأشدهم إقداماً وأثبتهم جنائناً حتى حيرت عقول ذوي النهى

وبينما كنت أقص عليها حكائتي واذا بالبواب الخارجي قد فتح بفتح من الخارج ورجل صعد السلم صعوداً سريعاً ودخل علينا وهو يتنفس تنفساً سريعاً ويده على جانبه من شدة الاعياء فنظرنا اليه فاذا هو رجل متوسط القامة اسود الشعر ذو عينين براقين ففتح باب المنزل بسرعة شديدة ثم التفت الى الحضور وقال

« حذار حذار فان البوليس قادم في هذه الدقيقة للتفتيش بمنزلكم »

ثم التفت نحوي وقال

« فز بنفسك واختبيء وإلا أصبحت في عداد الأموات »

ثم خرج من المنزل في طرفة عين

فوقفت شقيقتي أولغا مندعرة وهي تصفق بيديها نادبة سوء حظها وتقول لي

« اهرب يا غورتشا كوف اهرب لأنهم اذا وجدوك قضاوا عليك فالهرب

الهرب »

ولكن كولدبرغ التفت اليّ بتأن قائلاً

« لا مجال الآن للهرب لأنك اذا نزلت من هنا ألغوا القبض عليك عند

الباب فليس لك الى النجاة سوى طريقة واحدة وهي الاختباء وليس من

موضع أفضل للاختباء من النافذة التي في منتصف الحائط فاصعد اليها وخذ

صندوقك معك »

فنظرت الى النافذة واذا هي عالية وليس الى بلوغها من سبيل فنقدم الى

كولدنبرغ وأخى ظهره وقال « اصعد علي اليها »
فلم يكن سوى ثانية من الزمن حتى علت ظهره وبيدي صندوق فرميت به
الى النافذة وصعدت اليها بعد جهدٍ عنيفٍ ثم نزلت منها الى سطح بجانبها وأغلقت
خشبيها وكانت الريح عاصفة والسطح الذي وقفت عليه مائلاً حتى كدت أسقط
من موضعي الى أسفل فتمسكت بخشب النافذة الى أن وجدت جداراً صغيراً
الى جانب النافذة فجلست عليه وأحيت برأسي الى الامام فتمكنت بذلك من
مشاهدة الغرفة التي كنت جالساً فيها دون أن يراني أحد فوجدت أن شقيقي
أولغا جالسة بجانب النار ويدها كتاب والى جانبها زوجها وصديقتها وكانت
لوائح الهدوء والسكينة على وجوههم وذلك تفريراً للقادمين

وبعد وصولي الى النافذة بدقيقة واحدة دخل خمسة أنفار من ضباط البوليس
وما بلغوا باب المنزل حتى نظر اليهم كولدنبرغ وهو على أشد الاندهال رافعاً
حاجبيه مقطباً جبينه من شدة الاندهاش بينا أن سافاروف تقدم وقابلهم نحو
الباب بكل بشاشة وأنس وهو يرحب بهم بيديه ويدعوهم للدخول والتفتيش في
الموضع أما أولغا فانها أظهرت لقدومهم اندعاراً عظيماً وقابلتهم بأنفة وكبرياء من
أجل هذا التطاول بدخولهم بيت قوم أبرياء من كل مكيدة أو دسيه

فوقف الضباط وهم خيارى يجيئون أنظارهم في نواحي الغرفة فلا تقع على الشبح
الذي أتوا لأجله وسط هذه الزوابع والأقطار ثم حصل على أثر ذلك مناقشة
طويلة وأسئلة وأجوبة شتى لم أتمكن من سماع شئ منها لشدة الزوابع والرياح
ولكنني كنت أستنتج وأستدل على ذلك بما أمامي من حركات اليد وملامح الوجه
وكان سافاروف أول من سئل فأجابهم بتأن وابتسام دون أن يلوح على محياها
شئ من علامات الاضطراب بينا أن كولدنبرغ كان واقفاً يدخن بلفافته وظهره
مسند الى الحائط ينظر اليهم نظرة الرجل البري يضحك مثل هذا الموقف الذي
هو أدعى الى السخرية منه الى الخوف ثم أتى دور شقيقي أولغا فخطبتهم كملكة
لحق بها الحيف تو بخر أقواماً تجاسروا على اطلاق راحتها ثم رأيتها قد دفعت اليهم
جوازها الذي فيه الاباحة لها بسكني بطرسبرج فأعاده اليها الضابط الذي استلمه

بلطف وأدب وهي خطة بعض ضباط الروس في كل حال حتى ولو كنت ذاهباً
بين أيديهم الى الشنق

ثم بعد هنيئة أمرهم الضابط الأكبر بينهم بتفتيش المنزل فذهبوا الى
سائر جوانبه وأحائه ولم يتركوا فيه زاوية أو خزانة أو صندوقاً دون أن يفتشوه
ويذنبواهم كذلك خطري أمر ذعرت لأجله ذعراً شديداً وهو أنه قد يخطر لهم
تفتيش النافذة التي كنت جالساً بجانبها فألصقت جسدي بجانب الجدار من
الوراء ولم أكف أفعل ذلك حتى سمعت فتح النافذة ورأيت رأساً مطلقاً منها
يحدق في ذلك الظلام الدامس تحديق النسر فلبثت في موضعي لا أبدي حراكاً
حتى اني قطعت التنفس ولم يكن إلا كلبح البصر حتى عاد فأغلقها قائلاً
« ليس من أحد ههنا »

ثم عاد الى الغرفة وعاد الضابط الى تفتيش سائر الأوراق التي هنالك فلم
يعثروا على شيء ياتي أدنى شبهة في أمرهم وبعد هذا العناء الشديد قفلوا راجعين
فسمعت وقع أقدامهم على السلام الى أن بلغوا الشارع حتى لم يعد يسمع لأصواتهم
شيء من الصدى فنزلت إذ ذاك من مخبئي وتعانقتا لشدة جذلنا ولخلاصنا من
الوقوع في شرك هؤلاء الاقوام وبعد أن تحدثنا طويلاً ذهبنا للنمام ولكن
كولدبرغ لبث قائماً يخفر المنزل خوفاً من اعادة البوليس الكرة علينا

وبعد بلوغي بطرسبرج بثلاثة أيام كانت محطة السكة الحديدية مكتظة
بأمراء المملكة وأشرف البلاد وكبراء الوزراء وأعظم الحكام ونخبة أعيان
القوم قياماً بفروض الوداع للقيصر في هذا السفر الميمون والمساكر والفرسان على
جانب الطريق لاداء التحية العسكرية ولما تحرك القطار اهتزت جوانب الفضاء
من هتاف القوم الذي بلغ عنان السماء فجرى القطار الهويناء وكان مؤلفاً من خمس
عربات تشغلها أعضاء العائلة القيصرية وحاشيتها الكبيرة وفي جملةها وزير المالية
والداخلية والجنرال بيلي وزير الجاسوسية وغيرهم من أصحاب المنزلة السامية
والمقامات السياسية وأما العربية السادسة التي كانت وراء القاطرة فهي المطبخ

الامبراطوري وتوابعه وكان في جملة خدمته أنا وصهري كولدنبرغ
أما الطريقة التي تمكنا بها من الدخول في عداد خدمة المطبخ الملكي أثناء
هذا السفر فهي من جملة أسرار النهست العظيمة الا أنني اكتفي بافادتك أن
خادمين من خدمة المطبخ مرضا أو تمارضاني اليوم التالي بعد وصولي الى بطرسبرج
وان صديقنا سافاروف صاحب معمل الحلوى الذي هو جار كولدنبرغ أرسلنا
لنكون بدلاً منها وكان في جملة الخدمة الآخرين أحد أعضاء البوليس السري متكرراً
بزي خادم المائدة الامبراطورية وعليه كنا على أشد الانتباه والحذر

فسار بنا القطار باسم الله مجراه يقطع البيد والقنار وينهب الأرض نهباً في
تلك السهول المترامية الأطراف بين هضاب فالدي ونهر التوكا وكانت
الاحتياطات التي اتخذها القوم لوقاية القيصر في هذا السفر بالغة غاية الشدة والحذر
حتى ان سائر المخطوط الحديدية كانت ملاءى بالعساكر الكثيرة على جانبيها
في أثناء هذه المسافات التاسعة بين بطرسبرج وموسكو وهتاف الترحاب والدعاء
باليمن والاقبال متواصل على الدوام حتى أنه لم ينقطع دقيقة قط ولما بلغنا موسكو
لم يقف بنا القطار بل واصلنا المسير على خط تمبوف في أواسط روسيا

وبعد نحو نصف الليل بساعتين ذهب أكثر الخدمة للنوم ابريحوا
أجسامهم ساعة من الزمن ولم يبق منهم معنا سوى اثنين فقط فوقع لي اذ ذلك
أن أحمل شيئاً من الخمر المعنق الى المائدة الامبراطورية حيث تناوله مني عند
الباب البوليس السري المتكرر فتمكنت اذ ذلك من إجملة الطرف لحظة في داخل
غرفة المائدة فرأيت أن القيصرة ووصائفها قد ذهبن الى غرفهن الخاصة بالمنام
وان جلالة القيصر كان جالساً مع اثنين من كبار الوزراء يدخنون ويشربون الخمر
فعدت الى عربة المطبخ اشتغل بتنظيف بعض الآنية الذهبية واذا
بكولدنبرغ قد دخل عليّ مقفلاً الباب ورآه ووجهه شاحب كأوجه الموتى والعرق
البارد يقطر من جبينه فالتفت اليه منذغراً وقلت له « ما ورآك يا كولدنبرغ ؟ »
فأخني رأسه عليّ وهمس في أذني قائلاً وهو يرتجف
« ان الآلة قد وضعت وضعت عامودياً »

- « منذ كم من الزمن ؟ »

- « لا أدري تماماً ولكنني أظن منذ نحو ربع ساعة »

فلم أتوقف بعد هذا لحظة قط بل فتحت الباب وسرت الى الجهة المركزية من العربات حيث كانت هنا لك خزانة فيها أنواع الحلوى فنظرت الى الأسفل فوجدت في قاعها قطعة من السكر هرمية الشكل صغيرة الحجم أحضرتها معي من لندن ولا يمكن لأحد أن يشبهه في أمرها شيئاً على الإطلاق حتى أن جانباً منها كُسر من جهة الرأس واستعمله الطباخ في تحلية الطعام وكانت لفافة الورق الزرقاء التي يُلف بها السكر لا تزال حول الأجزاء الباقية فلم يكن هناك من شيء يميزها عن غيرها من نوعها ولقد كنت أخذت سائر الإحتياطات في أثناء هذا السفر لإبقاء هذه القطعة مُسندة أفقيًا فاستنتجت أن أحد الخدم فتح الخزانة منذ بضع دقائق وإنه لما وجدها تروح ذهاباً وإياباً بارتجاج القطار وضعها وضعاً عامودياً لكي لا تعرك ولما لمستها لكي أعيدها الى وضعها الأصلي الأفتي وجدت أن أصابعي لمست مادة غروية كثيفة فأيقنت عند ذلك أنه لا يمكن تأخير الخطب فقلت راجعاً الى موضعي حيث كان كولدنبيرغ فسألني

« ماذا نفعل الآن ؟ »

فأجبت على عجل

« ليس لنا الآن سوى سبيل واحد للخلاص »

« وما هو ؟ »

« ان تقفز من القطار طلباً للنجاة »

ثم تطلعتنا من النافذة الى الخارج فرأينا أننا قد بلغنا محطة تبعد عن بوركي نحو عشرين ميلاً أي بجانب الموضع الذي عيناه لضرب الضربة القاضية فيه وكان في المطبخ الخادمان الآخرون يدخنان ويشربان القودكا فقلت لكولدنبيرغ بصوت عال لكي يتمكن الخادمان من سماعنا « تعال ننظر الى هذه المحطة فإن بجانبها بلدة أعرفها يوم كنت يافعاً » ثم خرجنا من المطبخ وفتحت باب العربة وكان القطار سائراً بسرعة شديدة والظلام حالكاً والامطار تنساق بفرارة فقلت

لكولدنبيرغ « أتبعني » ثم قفزت من جانب العربية الى الخارج فشعرت على اثر ذلك بلطمة على رأسي ثم فقدت الشعور ولم أعد أع شيئاً واما عاد اليّ رشدي رأيت كولدنبيرغ واقفاً فوق رأسي ونحن في أرض مملوءة بالأعشاب فتطلعت واذا بالفجر قد انبثق

فوقفت على قدمي أرشح كالسكران ثم التفت الى كولدنبيرغ قائلاً « ولكن ماذا جرى للقطار؟ »

فقال لي وهو يهز كتفيه « كيف أعلم » ثم أشار بعد هذا بيديه الى رزمة من الثياب على جانب الطريق قائلاً « ان اخواننا في تمبوف لم ينسوننا » فقلت له بلهفة

« أمكنت من أن تجدها؟ »

فقال « نعم ولقد كانت مودعة في هذا الكوخ الخجير الذي بجانبنا » ولم يمض سوى بضع دقائق من الزمن حتى خلعنا ثيابنا وارتنينا الثياب الرثة التي وجدناها في جوار ذلك الموضع وبذلك قمصنا في مثل غمض الجفن من خادمين لجلالة القيصر الى فلاحين فقيرين وبيدنا جوازان كنا قد استحصلنا عليهما قبلا فيها أسماء منتحلين وانا تعجول في تلك المديرية طلباً للأشغال وبعد الجولان من موضع الى آخر بلغنا أخيراً بلدة أركاداك حيث نزلنا ضيوفاً في بيت العمدة الذي كان في عداد جمعيتنا وكانت الإحتياجات التي اتخذتها جمعية الثورة في تمبوف لتسهيل الحرب لنا بالغة غاية الإيقان والعناية فاننا بعد أن تركنا البلدة المشار اليها بقليل وجدنا هناك عجلة نقل تنتظرنا فركبنا فيها ونحن ننقل من بلدة الى أخرى الى أن بلغنا مدينة على الحدود تسمى فريمبالن وصلنا منها الى كنغرسبرغ وسافرنا من هناك الى انكترا وكان البوليس أثناء هذا السفر كلما بلغنا بلدة يفحص جوازنا فيجده على غاية ما يرام من اتباع الأصول المرعية الاجراء في روسيا وقد اشترت أثناء السفر في روسيا بعد نزولنا من القطار الملكي بعض أعداد من الجرائد الروسية كالنوفوفريميا وموسكو غازيت وونسكوي بشالا فلم يكن في أحدها ذكر قط للرحلة الامبراطورية وذلك لأن

وزير الداخلية أصدر أمراً قاطعاً يمنع فيه الجرائد عن الايمان الى الحادث الذي لم أعلم بشي من تفاصيله الا بعد عودتي الى انكلترا ولما بلغت لندن را تلقتني الرئيس بتروف بالبشاشة والترحاب ثم اطلعني على أحد أعداد جريدة التيمس الشهيرة فكان فيه تحت العنوان الآتي بياناً موجزاً للفاجمة

« فاجعة عظيمة في روسيا : مكيدة ضد القيصر »

« حدث عند بلوغ القطار الامبراطوري محطة بوركي فاجعة أليمة اهتزت لها جوانب الامبراطورية الروسية وهلعت قلوب الوزراء والحكام لهذا الخطب الجلل وذلك أن القطار الذي يقل جلالته القيصر والقيصرة ووزراء الدولة وعظما الأمة نسف بالديناميت نسفاً فتحطمت سائر عرباته واحترق أكثرها وقتل عشرون رجلاً وجرح عددٌ غفير من الركاب وفقد اثنان من الخدمة أما الأسرة الملكية فقد نجت من هذا الخطب وكانت نجاحها اعجوبة عظيمة فان الديناميت حطم في وسط القطار موضع الانفجار وعطل السكة الحديدية التي أسفله وما جاورها وفتح فيها فوهة كبيرة فحفر الارض حفراً وسحق القضبان الحديدية الكشيفة أما البيان الثاني بهذا الخصوص فلم يرد منه شي حتى الآن وذلك لأنه قد صدرت الأوامر بعدم نشر شي من هذا القبيل الى أن يتم التحقيق بشأنه وقد ألقى القبض على سائر من بقي من الخدمة أحياء وادارة البوليس توالي البحث بجهد لا يعرف الملل ونشاط لا يدبره خمول ومتى انجلت الحقيقة أتينا على تفاصيلها الضافية الذبول »

ولا بد من الايمان هنا الى أن هذه المكيدة كانت أعظم المكائد التي قام بها النهلست وأدقها احكاماً وأوفرها انقائاً وأنغمضها أسراراً فإنه كان وسط ذلك الهرم الصغير من السكر آلة محكمة الوضع والاتقان قام على عملها أبرع العمال وهي مؤلفة من ساعة أميركانية صغيرة يتصل بها أنبوبان من الزجاج يتضمنان سائلين من أشد السوائل المعروفة تفرقاً وأهلكها انفجاراً فاذا ما أديرت الساعة بالزنبك ووضع الهرم وضعاً أفقياً اقتضى لاتمام العمل وانكسار الأنبوبين وتلاقي

السيالين المتفرعين نحواً من أربع وعشرين ساعة أما إذا وضع الهرم عمودياً دارت الساعة وانكسر الانبوبان واتحد السيلان وحصل التفرع الهائل في نحو ربع ساعة فقط وقد كان الاختراع على هذه الصورة حتى اني اذا لم أتمكن من دخول القطار الامبراطوري في جملة الخدمة أدخلنا الآلة مهربة مع لوازم الطعام وأنواع الحلوى موضوعة وضعاً عامودياً فتفجر بعد ذلك ربع ساعة أما خلاص الأسرة الامبراطورية وعدم ذهابها ضحية هذا التفرع الهائل فيعمل عنه بهذا الانفجار العامودي الذي ذهب فيه قوة الديناميت بين الجو والأرض أما لو بقيت الآلة على وضعها الأصلي وانفجرت انفجاراً أفقياً لم يسلم من سائر الذين كانوا في ذلك القطار شخص واحد ولا مست سائر العربات هباءً منثوراً

و بعد أن انتهيت من مطالعة المقالة تقدم اليّ بتروف وعانقتي طويلاً ثم قال « أهني صديقي غورتشا كوف سرجيوس فلاديمير لا تتخابه رئيساً عاماً وجنرالاً للنهلاست في سائر أنحاء أوروبا »

فوقفت منزعجاً وقلت له «ماذا تقول؟» فدفع اليّ قراراً رسمياً يعان أن اللجنة العاملة قد انتخبنتني في اجتماعها الأخير زعيم النهلاست العام وانها رجت بتروف بالذهاب الى روسيا لقضاء مصالح خاصة تتعلق بالجمعية



الفصل الثاني عشر

« وما ظلم الآ سيبيلى بأظلم »

بينما كنت تلك الليلة جالساً مع بتروف في نادي الثورة أستريح من مشاق ذلك السفر الذي دوت لنتائجها أنحاء أوروبا دواً عظيماً هممت بالانصراف فأمسكني بتروف وقال سنبقى هذه الليلة معنا للعشاء وخصوصاً لأننا في انتظار أخ صدوق ثم دفع اليّ كتاباً محرراً بالأحرف النهلاستية التي لا يتأتى لأحد حلها سوانا فاذا فيه ما يأتي

« ان مزراكي أو بندورف الذي سيصل الى لندن مساء الخميس القادم هو أحد الاعضاء المهددين في لجنة الثورة في موسكو ولقد سجن مرتين متواليتين احدهما في شلسبرغ والأخرى في سجن القديسين بطرس وبولص وأتيح له الآن الهرب ولقد بعثنا به اليكم لأننا على ثقة أنه سيكون من الاعوان الامناء الذين لخدماتهم شأن كبير وذلك لما هو عليه من الجرأة والاقدام ومعرفة كثير من اللغات الأوربية التي تسهل عليه بلوغ المراد وبما أنه ذو نروة كبيرة فهو ليس في حاجة الى شيء من الدراهم أو تقديم اسعاف له من اللجنة العاملة ومتى بلغ لندننا يسلمكم كتاباً منا لتعريفه بكم
رئيس جمعية الثورة في موسكو

مكس هونفرسكي

فأرجعت الرقيم الى بتروف وقد أحنيت رأسي على كرسي مريح ولبثت كذلك أدخن لفاقي وأنا أتأمل في الوقائع التي حدثت على يدي منذ عهد قريب واذا ببتروف وغيره من أعضاء اللجنة يترحبون بالزائر الجديد وهم يتكلمون الروسية ثم دخلوا جميعاً وعرفوني به فاذا هو شاب ربعة القامة يناهز الثلاثين سنة من العمر ذو عينين صغيرتين براقيتين فنزع عنه وشاحه وجلس بجانب النار ثم أخرج من جيبه رقياً وسلّمه لبتروف

ولما جالسنا على المائدة كنت بجانبه فأخذ يحدثنا عن حركة الثورة في روسيا وتنبه خواطر رجال الأمة الى المطالبة بحقوق الشعب وكان في انتقاده الحكومة شديد اللهجة حاد اللسان جري الجنان وكان كلامه فصيحاً وحديثه يأخذ بمجامع القلوب والالباب وبعد أن انتهى من كل ذلك سألته أن يقص علينا شيئاً من أمره وما جرى له فقال ان المصائب التي حلت عليه لو وقعت على جبل لتصدع ثم نظر الى بتروف وقال

« أتعرف سجن شلسبرغ المظلم وغرفة الرطبة التي هي تحت الارض؟ »

فتأوه بتروف قائلاً

« كيف أنسى ذلك الجحيم الأرضي وقد سجننت فيه مع امرأتي وذقت مرارته وشدّة بلواه ولقد أودت هذه الحال بامرأتي العزيزة الى الجنون

وها هي الآن في مستشفى المجانين »

فالتفت أو بندورف إلينا قائلاً

« ان الجنون هو نصيب أكثر أولئك النعساء الذين قضى عليهم الظلم والاستبداد بأن يدخلوا ذلك المكان الهائل ولقد كاد يعتريني الجنون أثناء سجنني فيه ولكنني كنت على الدوام أمشي في غرفة السجن أنظم الشعر وبقيت على هذا المنوال أسابيع وأشهرًا ولولا ذلك لكان في مس من الجنون ولبثت صابرًا على مر البلوى الى أن قويض الله لي الحرب وكيفية ذلك أن فريقًا كبيرًا من المجرمين القتلة أرسلوا الى هناك من بطرسبرج حتى غصت بهم غرف السجن فنقلني السجن من موضعي الى غرفة من غرف البرج الكبير هناك وهي غرفة بسيطة لها نافذة تطل على الجسر (الكبيري) وهي عالية ولكن في أسفل النافذة أنبوبًا كبيرًا للماء ينحني على سطح مائل لا يتعذر على الجري استعماله سبيلًا للهرب ولما كانت هذه الفرصة هي الوحيدة التي تمكنت بها من الهرب عزمتم على المخاطرة بحياتي لأن الموت أفضل من ذلك السجن الرهيب ولذلك اصطنعت جبالًا من ثيابي وتدللت على الجسر الذي يصل الى السجن بالضفة الأخرى من النهر وبينما كنت أهني نفسي على هذا الحظ السعيد الذي كان لي رأيتي أحد الحراس وصاح برفاقه لاتباعي فخرت في الحرج المجاور كالسهم اذا انطلق فجري ورأيتي بضعة نفر من الحراس ولكنهم لم يتمكنوا من اتباعي إذ أني بعد بضعة دقائق اختفيت بين الأشجار الغضة وأصبحت في مأمن منهم وما لبثت في مخبائي بضعة دقائق حتى رأيت نحو عشرين فارسًا من حرس الفرسان ينهبون الطريق نهبًا فلما تواروا عن الأبصار خرجت من مخبائي وقصدت جانب نهر النيفا فראيت على الشاطئ المقابل ما ظننته سوارى مراكب وكان بجانبى عدد غفير من البحارة فعرضت روابلين على أحدهم لكي يقطع بي النهر الى الضفة الأخرى ولما سألتني الرجل الباعث على ذلك أخبرته أن هنالك مركبًا أحب ركوبه فنظر إلي الرجل شزراً وسألني من أنا فأخبرته أني أحد الفعلة فخدق بي كمن اشتبه بأمرى فحفلر لي أن أجري ركضًا تخلصًا من هؤلاء الأقوام ولكنني رأيت بعد النظر أن

ذلك من المحال لأن عدد البحارة غفير وقد أصبحوا محيطين بي من كل جانب فاضطرت أخيراً الى الاقرار بحقيقة أمري فتارت في قلبه عاطفة الحنان علي وقطع بي النهر ولما بلغت الضفة الأخرى نظر اليّ قائلاً « لا نقل لغيري بعد الآن انك تقصد مركباً في هذه الضفة لأن ذلك كان منذ نحو عشرين سنة أما الآن فلا يوجد فيها مركب واحد أبداً » فصرفت ذلك النهار وأنا تائه بين الادغال ولما أمسى المساء بلغ التعب والجوع مني مبلغاً عظيماً فأخذت أسير طلباً للوصول الى قرية من القرى فلما وصلت اليها قرعت أبواب القوم فلم يكن منهم من يقبلني ضعيفاً في بيته وأخيراً ذهبت الى بيت عمدة البلدة ولما فتح لي الباب أخبرته اني أبحث عن العلم في بطرسبرج حضرنا للنزهة ثم ان أصحابي عادوا وتركوني بعد أن غلب الكرى أجفاني من وفرة الفودكا التي تعاطيناها فأخذني الرجل اليه وفي صباح اليوم التالي استأجرت قارباً وبلغت بطرسبرج فنزلت عند بعض الأصدقاء الذين آوونني ولبثت هناك آمناً وبعد أن قدس علي البوليس جهده على غير طائل سافرت من بطرسبرج كأحد العمال الى أن بلغت لندرا»

ولما عدت الى منزلي تلك الليلة طلبت من أوبندورف أن ينزل ضعيفاً عندي فقبل ذلك شاكرًا فكنا نجول سووية ونقوم ببعض الخدمات التي تطلبها جمعيتنا سووية فوجدته شديد العزم رابط الجأش كثير الحزم والاقدام فتمكنت بيننا عرى الصداقة والوداد وكنا نذهب الى نادي الحرية سووية حيث نلتقي بجمهور من أعيان الانكليز وجملة النهلست

وحدث ذات يوم بينما كنت جالساً وحدي في منزلي ان أحد سعاة البريد قد دخل عليّ ودفع اليّ كتاباً عديدة باسمي واسم صديقي أوبندورف وبينما كنت أتأمل فيها وجدت أحدها باسم أوبندورف معنوناً الى السفارة الروسية وعليه طابع حكومة روسيا فعلت ان الساعي قد أحضره الى منزلي خطأ فأقفلت الباب وفضضت الغلاف فاذا فيه ما يأتي

« عزيزي أوبندورف

« إن التقارير التي بعثت بها الينا بعد بلوغك لندرا أتت مصداقاً لما تكلمنا

بخصوصه هنا وهو أن الفاجعة التي حصلت لجلالة القيصر إنما هي مكيدة نهاست
لندرا قام باخراجهما من حيز الخيال الى عالم الحقيقة ذلك المارق غورنشا كوف
سرجيوس فلاديمير الذي سينال يوماً جزءاً ما جنت يدها ولقد رفعنا خلاصة
تقاريرك الى وزير الداخلية ولا يمر زمن طويل حتى يصدر الأمر بتعيينك رئيساً
للبوليس السري في لندرا ومتى أنجزت مهمتك هناك تعود الى بطرسبرج مستشاراً
لوزارة الداخلية ولقد عقدت النية على التوجه الى باريس بعد أسبوع من الزمن
فعليك بإرسال سائر التقارير باسمي الى نزل الامراء في شارع الوفير وسيكون
قدومي الى عاصمة الفرنسيين صاعقة تنقض على أعدائنا من حيث لا يدرون «
الجنرال ملا كوف

هذا هو عدوي الألد ملا كوف الذي أوقعني وشقيقتي تحت أفاعي الشياطين
فأدمى الجلد وكان باعثاً على إرسالني الى أقاصي سيبيريا ذلك المنفي الذي لا تزال
أهواله مطبوعة على مخيلتي كأنها طبعت بنار - هو هو نفسه تعين رئيساً لبوليس بطرسبرج
والآن قادم ليقع في الشرك التي نصبها لنا وهذا أوبندورف الذي ترحبنا به
ترحب الاخ بأخيه والصديق الودود بصديقه الودود لم يحضر الا ليكون حية
تسعى بين أعضائنا ورقياً على حركاتنا وجاسوساً على أعمالنا فذهبت نواً الى
نادي الثورة ووزعت رقع الدعوة على أعضاء اللجنة العاملة فانهقدت الجمعية
تلك الليلة وحكمت على اوبندورف بالاعدام فلما عدت في المساء الى منزلي وجدت
رقباً من اوبندورف يقول فيه أن قد عرضت له بواعث تضطوره الى تأجيل حضوره الي
نحواً من أسبوعين

وبعد أسبوع من الزمن توجهت الى باريس فوجدت لجنة الثورة هناك في
اضطراب شديد فان ملا كوف قد بلغ المدينة مساء اليوم الماضي وقد علمت
جواسيسنا هناك أن الموسيو لوران رئيس بوليس المدينة زاره في نزل الامراء
ولبت معه برهة طويلة في حديث ذي شجون الغرض منه إيجاد وسائل سرية يمكن
أن يبنى عليها حكم في تسليم بعض أعضاء الثورة هناك الى الحكومة الروسية
واعادتهم الى تلك البلاد ومعنى ذلك الحكم على هؤلاء الاقوام الابرياء بالنفي

المؤبد والاشغال الشاقة في مناجم سيبيريا

ولما نزل ملا كوف في نزل الامراء ادعى انه تاجر حضر لترويج النفس من مشاق الاعمال التجارية ولم يتظاهر بشيء من البذخ والاسراف بل كان عنده خادم واحد فقط يقوم على خدمته ويحترمه كثيراً أحضره معه من روسيا وكان ملا كوف يتعهد مواضع اللهو ومنزهات المدينة ويتغيب عن المنزل أياماً بطولها دون أن يعرف له قرار ومتى عاد الى النزل حضر اليه جماعة من الأقسام بثياب رثة واطمار بالية ينثر الدنانير بين أيديهم نثرًا اذ كانوا يدعون أنهم أقوام ناخ عليهم الدهر بكامله وعضهم القبر بنابه وأنهم أتوا يستغيثون بهذا الجواد الكريم والمحسن العظيم وما هم سوى لفيغه وآلات مكائده

وبينما كنت سائرًا ذات يوم في شوارع المدينة شاهدت الجنرال ملا كوف راكبًا عجلة وذاهبًا للتنزه الى حرج بولونيا فخطر لي خاطر غريب فسددت خطواتي الى نزل الامراء وقرعت باب منزل الجنرال ملا كوف واذا بخادمه قد فتح الباب وهو شاب نحيل الجسم أصفر اللون فقال لي ان سيده قد خرج ولا يعلم متى يعود فأخبرته اني قد أتيت لغرض هام ولا بد لي من الانتظار الى أن يعود ثم وضعت في يد الخادم جنبيها فمر بي من القاعة وأدخلني غرفة فسيحة كبيرة تطل على الشارع وكانت تلك الغرفة للجلوس والكتابة معاً فلما انصرف الخادم وأغلق الباب وراه تلفت فاذا بجاني طاولة كبيرة عليها كتب شتى ففتحت واحداً منها واذا هو تقرير مطول عن أعضاء لجنة الثورة في باريز من أحد جواسيس الجنرال وذلك على رق من الورق مطبوعة فيه الاسئلة الآتية

« يجب أن يملأ فراغ الجواب على هذه الاسئلة مرة في الاسبوع »

« (١) ما هو اسم الشخص الذي هو تحت المراقبة واسم أبيه وعائلته سواء

كان رجلاً أو امرأة؟

« (٢) أين يسكن وما اسم الحي والشارع والمنزل؟

« (٣) أين التقيت به أولاً وما هي الظروف التي رأيته فيها وهل رآك هو نفسه؟

« (٤) منذ كم من الزمن سكن في منزله الحالي ومن أين أتى وماذا تعلم عن

موضع سكناه السابق؟

« (٥) هل يسكن منفرداً أو يساكنه أحد آخر وإذا كان الامر كذلك فمن يساكنه وماذا تعلم من أمر هذا الرفيق؟ »

« (٦) هل في خدمته أحد وإذا كان الامر كذلك فما اسمه أو أسماءهم إذا كانوا أكثر من واحد وإذا لم يكن له خادم فمن يرتب غرفته أو غرفه وما هي الاشياء الموجودة فيها ومن تغسل ثيابه وما اسمها وموضع سكنها؟ »

« (٧) هل يتناول طعامه في منزله أو في مطعم وإذا كان الامر كذلك فما هو ذلك المطعم؟ »

« (٨) هل يتردد على مكتبة ما وما هي الكتب التي اقترضها أثناء الاسبوع؟ »

« (٩) في أية ساعة يترك غرفته وفي أية ساعة يعود إليها؟ »

« (١٠) كيف يصرف وقته في منزله؟ »

« (١١) هل هو اعزب أو متزوج وإذا كان الامر كذلك فهل له اولاد أو كم عددهم؟ »

« (١٢) هل هو مغرم بامرأة وإذا كان الامر كذلك فمن هي وما هو منزلها »

وأين يجتمعان؟

« (١٣) من يزوره أثناء الاسبوع وفي أي وقت من النهار سواء كان قبل »

الظهر أو بعده؟

« (١٥) هل صرف أحد الليل عنده سواء كان رجلاً أو امرأة وإذا كان »

كذلك فمن هو هذا الشخص أو الاشخاص وما موضع سكنهم؟ »

« (١٦) هل ترده رسائل أو جرائد من روسيا؟ »

« (١٧) أية ساعة أشد موافقة لالتقاء القبض عليه؟ »

وكانت الأجوبة على هذه الأسئلة غاية في الدقة والاسهاب فلم يترك الكاتب تفصيلاً إلا على يانه ولا افادة إلا بان دقائقها أما توقيع التقرير الذي كان ييدي فكان بامضاء أحد الرقباء وعلية توقيع الجنرال ملا كوف ايما الى انه طالعه ووافق على صحته

وبينما كنت منهمكاً بمطالعة هذا التقرير اذا بالباب قد انفتح ودخل

عليّ الخادم فذعرتُ من ذلك وأعدت الكتاب الى موضعه فنقدم اليّ الخادم
باحترام وقال

« أرجوك يا مولاي غوثشاكوف سر جيوس فلا دييمير أن تترك الفرقة قبل
عودة سيدي »

فشعرت كأن صاعقة قد انقضت على رأسي وتفردت بالرجل قائلاً
« أتعرفني يا رجل؟ »

فلم يجب عليّ سؤالي بالكلام ولكنه أحنى رأسه وأدى الإشارة النهلستية
فزادني ذهولاً ونظرت الى الرجل سائلاً

« ما اسمك وكيف تأتي لك الوصول الى خدمة رئيس الجواسيس؟ »
« اسمي جورج كرا كوفتش وقد انقضت الآن سنة من الزمن وأنا في خدمة
الجنرال »

« هل تعلم مضمون الرسائل التي ترد على الجنرال من جواسيسه؟ »
« أنسخ كل تقرير على حدته وأرسله الى لجنة الثورة في بطرسبرج »
« رأيت الآن بين أسماء الذين وقعت عليهم الشبهة من أعضائنا اسم
نبتوفسكي أحد اخواننا فهلاً بعثت اليه تحذيراً؟ »
« أجل يا مولاي وقد باع الآن معمل التبغ الذي يملكه وهو مزع على الرحيل
الى لندنرا »

« ولكن ما ذا جرى بابنته نينتا؟ »
وبينا هم بالاجابة واذا بصوت وقع أقدام فنقدم اليّ الخادم قائلاً
« أرجوك يا مولاي أن تعجل فهو ذا الجنرال قد أتى - المعجل - المعجل »
ثم تقدم نحوي وجذبني بيدي الى غرفة مجاورة وأقفل الباب فتمكنت بذلك
من الوصول الي السلم والنزول الى الشارع دون أن ألتقي بالجنرال
ولما أرخى الليل سدوله جلست في غرفتي أتأمل بحوادث ذلك النهار وأنه
لا بد من التعجيل في رحيل نبتوفسكي واذا بأحد الاخوان من لجنة باريز قد
قرع الباب شديداً ثم دخل على عجل قائلاً

« ان بوليس باريز قد ألقى القبض على نبتوفسكي وسائر أوراقه وأشياءه وفي
جملتها قنابل ديناميت غير كاملة العدة »
فتطلعت الى الرجل مندهلاً وقلت
« ولكن نبتوفسكي قد حُذِر وكان على أهبة الرحيل من باريز »
« ذلك صحيح ولكنه الآن في قبضة أيديهم »
فتفرست فيه وسألته نفس السؤال الذي أجبني عنه خادم ملا كوف قائلاً
« ولكن ما ذا جرى بابنته نينتا ؟ »
« خرجت من المنزل عصر أمس وحتى الآن لم تعد »

فتعجبت من تمكن بوليس باريز من العثور على قنابل ديناميتية في منزل
نبتوفسكي بعد أن وردته رسائل التحذير واستنتجت بعد أعمال الروية أن جواسيس
السفارة قد وضعها هناك عمداً بطرق سرية كما جرى مثل ذلك قبلاً فلبست ثيابي
وتوجهت مع صديقي الى موضع اجتماع الأعضاء لتداول في أفضل الوسائل
لاقتاد نبتوفسكي

وفي اليوم التالي حضرت محاكمة نبتوفسكي فوجدت المحكمة غاصة بالجمهور
و بينهم شهود من جواسيس السفارة الذين شهدوا بمعاينة القنابل في منزل نبتوفسكي
وكان بين الجمهور الجنرال ملا كوف لابساً ثياباً بسيطة وهو يراقب سير المحاكمة
باسماً عن وجه يفتر سروراً بفوزه ثم أن بعضاً من رجال السفارة ذكر أن نبتوفسكي
في جملة الهاربين من روسيا لجرائم كبيرة وان الحكومة الروسية تطلب تسليمه اليها
بعد الذي بدا منه من صنع المفرقات والآلات المهلكة فأيقنت عندئذ أن لا وسيلة
لخلاص الرجل وأن نصيبه سوف يكون النفي الى مناجم سيديريا

وبعد انتهاء المحاكمة توجهت مع صديق الى احدى القهاوي حيث اشترينا
بعض أعداد من الجرائد فرأيت في أحداها وهي الايكودي پاري ما يأتي
« عثر الليلة الفائتة أحد البحارة المسمى ليبرنيه وهو يصطاد سمكاً على جثة
فتاة التقطتها سنارته في نهر السين ولم يوجد في ثياب الفتاة ما يُعلم منه حقيقة أمرها
وقد بُعث بالجثة الى غرفة الموتى الى أن يجري بشأنها التحري اللازم »

فلم نبطئ بعد هذا ان توجهنا الى الموضع المذكور الذي هو وراء نوتردام
فعلمنا من النظرة الأولى ان الجثة انما هي جثة نينتا السيئة الطالع
ولما وقفت على هذه الحقيقة توجهت توّاً الى منزل الجنرال ملا كوف فسلمني
الخادم ورقة أسرع الى وضعها في جيبى وكانت تقريراً مفصلاً بخصوص سائر
حركات ملا كوف أثناء الأربع والعشرين الساعة الفائتة

ثم ذهبت بعد ذلك الى نادي الثورة في باريس وعقدت اجتماعاً معجباً
أتيت فيه على بيان المهمة التي لأجلها أتى ملا كوف باريس ووضعت أمامهم الأدلة
والأوراق التي تثبت الجنايات التي قام بها الرجل فبعد مداولة طويلة حكم عليه
بالاعدام وألقينا قرعة كالعادة

وكان بين الأعضاء المجندين جورج كرا كوفتش خادم الجنرال ملا كوف
فشيننا سوية بعد ارفضاض الجلسة ولما صرنا في خلوة نظر الى قائلاً « لقد جدّ
عليّ من المشاغل ما يضطرني الى ترك خدمة الجنرال في أقرب آن » فتعلت اليه قائلاً
« اذا كان لا بد لك من ذلك أفلا يمكن أن أحل محلّك ؟ »

« بلى ويمكنك إذ ذاك من متابعة رقبه »

« وعلاوة على ما تقدم فإن بيدي شهادات تدل على حسن سلوكي وخدماني

السابقة من أسيادي السابقين »

فتأملتني ضاحكاً وأجاب

« ممّن ؟ »

« من البرنس أوختومسكي »

فتبسّم وتابعا سيرنا ولم يمر بعد هذا بضعة أيام حتى تعينت خادماً للجنرال
ملا كوف تمكنت أثناء ذلك من نسخ سائر التقارير التي كانت ترد عليه من عماله
السريين رجالاً وسيدات

وبعد نحو ثلاثة أسابيع عثرت بين أعداد الجرائد التي كنت اشتريتها من
الباعة على تلغراف منشور في جريدة التان الشهيرة لمكاتبها في بطرسبرج يفيد أن
نبتوفسكي الذي ألقى القبض عليه في باريس قد حوكم أمام مجلس عسكري وثبتت

عليه مهمة محاولته اغتيال القيصر فحكّم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة في سيبيريا ولم أكد أنجز مطالعة هذا التلغراف حتى قرع جرس الباب فوجدت هناك رجلاً ربعة القامة يطلب مواجهة الجنرال ويده جريدة وعليه ثياب رثة فدخل الى غرفة الجنرال وأغلق الباب وراءه فبقيت جالساً الى جانب الباب أنصت الى ما يكون من أمرهما واذا بملاكوف يقول للزائر

« لقد ثبت عليه مهمة محاولة الاغتيال ومتى علم جلالة القيصر ذلك انهالت علينا انعاماته المتواليه انهيال الغيث على ما أبدينا من الدهاء »
فأجاب الزائر قائلاً

« ولكنه دهاء لو علمت سائر تفاصيله انقلبت علينا وبالاً »

« ماذا يهمك أو يهمني لو خسر العالم نهليستياً من هؤلاء الطغام »

« قد يكون ذلك صحيحاً ولكن أنت تعلم يا مولاي الجنرال اننا لم نتمكن من القاء القبض على هذا الرجل في باريس وتسليمه الى الحكومة الروسية الا بتضحية حياة ابنته نينتا »

« ان نينتا اتحرت اتحاراً وعلاوة على ذلك فانها دُفنت دون أن يعرف أحد جثتها »

فأجاب الزائر الذي لم يكن سوى أحد جواسيسه

« ان نينتا لم تنتحر ولكنها قُتلت قتلاً »

« كيف تعلم ذلك ؟ »

« ان جواسيس الحكومة الروسية حاضرة في كل مكان وكان أحدهم حاضراً لما رميت الى النهر وذلك الجاسوس الذي رأى ذلك هو خادمكم المطيع »

فأجاب الجنرال ملاكوف على عجل

« اخفض صوتك لأن خادمي في الغرفة الأخرى فقد يتمكن من سماعك فارع السمع لما أقول لك نجد اني كنت في عملي مصيباً فان لهذه الفتاة حبيباً يسمى مران كان من جملة موظفي السفارة الفرنسية في بطربرج ولما كان الرجل يقدر أن يقوم لنا بخدمات مهمة تظاهرت بصداقته غير أنني اكتشفت بعد

وجيز من الزمن ان الرجل يميل الى آراء النهلستين وانه أحد أصدقاء نبتوفسكي الأقدمين ولقد تمكنت نينتا ابنته من معرفة شيء من أمري وان لي علاقة بجواسيس الحكومة الروسية فأغوت مران على سرقة بعض الأوراق التي تتعلق بأبيها فانه زارني مرة ففكرتته وحده في غرقي بضع دقائق من الزمن تمكن أثنائها من احراز كتاب على غاية من الأهمية فانه لو اطلع عليه القوم في فرنسا كان جزاؤنا الطرد من أرضها لأن في ذلك الكتاب تفاصيل المكيدة والشبكة التي ألقيناها للرجل بوضعنا قنابل ديناميتية في منزله وأنت تعلم ان الوزارة الداخلية في بطرسبرج قد ضاق صدرها من الابطاء والتسوية فكان لا بد لنا إذ ذاك من إيجاد رجل يصح أن تلقي على عاتقه مسئولية ما

« إذا ما ترمي اليه هو إيجاد رجل نهلسني يُذنب سواء كان مجرماً أم لا »
« لقد أصبت كبد الحقيقة ثم أفيدك اني أخذت في رقب مران والفتاة حتى تأكدت أن الشاب قد دفع الكتاب اليها دون أن يعرف هو نفسه ما يتضمنه فكان لا بد لنا إذ ذاك من التوصل الى طريقة تتمكن بهما من لجم لسان تلك الفتاة والطريقة الوحيدة الفعالة هي الموت وعليه فاني راقبتها حتى اذا ما كانا على مقربة من نهر السين . . . »

« لا لزوم لسرد ما تبقى من الحديث لأنني تبعتك الى هناك ظاناً أنك قد تكون في حاجة الى مساعد فرأيتك تدنو من الفتاة بعد أن انفترقت عن حبيبها ثم انتشلت الكتاب من جيبها ورميت بها الى الماء »
« لو لم أفعل ذلك كانت النتيجة ان الفتاة تذهب بذلك الكتاب الى أحد أعضاء الاشرافيين في مجلس السناتو في فرنسا فيأخذ ذلك الحزب بناصرها ويطرحون في مجلس الأمة أسئلة بهذا الخصوص عاقبتها علينا الويل والحرب والخذلان فينكشف أمرنا ويسقط احترام مصلحة البوليس السري الروسي في عين الأمة الفرنسية وتسلقنا جرائدها بالسنة حدادو مُحكم علينا بالطرد والخذلان »
فأجاب الزائر « أما الآن فلا خوف علينا من ذلك ولا نحن نحزن بل ان جلاله القيصر سيكون لنا من الشاكرين ويقدم احسانه علينا اغداق الكرم

الجوَّاد فتمتلي ، جيو بنا بالدنانير وتتألق صدورنا بالأوسمة وإني مقر لك يا مولاي
بأنك أدهى دهاءة السياسة وأعدك أن لا نعود الى ذكر هذا الحديث مرة أخرى»
وعند ذلك سمعت صوت أقدام في الغرفة فتراجعت الى الغرفة المحاذية فرأيت
الباب قد فُتِح والزائر خارجاً منه الى أن تواري عن الأَبصار في أسفل الشارع
وبعد ساعة من الزمن دخلت على الجنرال ملاكوف فوجدته قد استلقى على
مقعد في زاوية الغرفة وأوراقه مبعثرة على الطاولة ويدها مسدس

فلما رأني تفرس في وقال

« الأمر حضرت اليّ »

فأجبت « لأمر هام جداً »

« وما هو ؟ »

« لأستقيل من خدمة مولاي »

فنظر اليّ ملاكوف نظرة كلها سخرية وازدراءً وأجاب

« أنسى ذلك أمراً هاماً ؟ فأنت من هذه الدقيقة في حلّ من خدمتي

فأذهب وغداً أحضر من يقوم مقامك »

« أشكرك إذا باسم مولاي الجديد »

« من هو هذا المولى الجديد الذي أشغاله السياسية تستدعي كل هذا الالمح »

« خلّ عنك المزاح يا مولاي فإن الرجل من أصحاب السياسة واسمه

غورتشا كوف سرجيوس فلاديمير »

فجلس ملاكوف على المقعد كأنه وحز بحربة وقال لي باهتة

« هل غورتشا كوف سرجيوس فلاديمير في باريز ؟ »

« نعم يا مولاي »

« ومتي حضر اليها ؟ »

« منذ نحو أسبوعين من الزمن »

« هل لك معرفة سابقة به ؟ »

« نعم فقد كنت خادماً له برهة طويلة في لندرا »

« هل تعرف شيئاً من أمره؟ »

« أعرف عنه ما لا يعرفه رجل سواي »

« أكان موخراً في روسيا؟ »

« لم يذهب فقط الى روسيا ولكنه ذهب حاملاً معه آلة الهلاك الديناميتية

لنسف القطار الملكي »

« فنظر اليّ مندهشاً وكله عيون ومسامع وقال

« أتعلم شيئاً عن ذلك؟ »

« أخبرتك يا مولاي أنني أعرف عن هذا الرجل ما لا يعرفه سواي فإنه من

أسرة فلا ديمير الشهيرة بالثروة فإن نصف ينابيع البترول في روسيا ملكهم ولكن

أبو الرجل كان من عصابة النيبيلست فحلّ عليه غضب القيصر ونفاه الى سيبيريا

وصادر سائر أملاكه ولما عاد ابنه وجد نفسه فقيراً لا يملك شروى تقبر فأخذ

يتجول مفتشاً على أمه وأخته الى أن حظي أخيراً بهما الواحدة ميتة من الجوع على

حصير بال سيف في غرفة مظلمة رطبة والأخرى موثقة الى آلة خشبية ومعراة حتى

وسطها والسياط تنهال عليها انهبال الغيث حتى أدمت جلدها وذلك لان ميكروب

النيبيلست انتقل اليها من والدها فلما شاهدها شقيقها على هذه الحال ود تخليصها

فأمر الحاكم بجلده وأخيراً نفي الى سيبيريا ثم هرب من هنالك الى لندرا حيث

دخل في عداد النيبيلست وقام بأعمال تقشعرها الأبدان »

« سمعت شيئاً من ذلك ولكن الأمر الذي يهمني الوقوف عليه هو معرفة

دخائل تلك الدسيسة التي تم بها نسف القطار الملكي الذي تشير اليه »

« ذلك من أسهل الأمور فإن النيبيلست لما أجمعوا على ذلك أقروا على

اصطناع آلة جهنمية قام بصنعها نفس النيبيلستي الذي اخترع تلك الساعة التي

دكت قسماً من قصر الشتاء الأمبراطوري ولكن هذه الآلة الأخيرة كانت أغرب

صنعاً لأنها كانت عبارة عن قطعة هرمية الشكل من السكر نثضمن السوائل

القابلة للتفرقع على شكل ساعة أمركانية اذا وُضعت عمودياً تفرقت في ربع ساعة

أو أفقية ففي أربع وعشرين ساعة »

فهز ملا كوف رأسه عدة مرات وبدت على وجهه دلائل الجذ والأهتمام
وأخرج من جيبه كتاباً وقلماً وأخذ يعلق هنالك من الملاحظات ما عن له
« هل تعلم كيف دخل روسيا؟ »

« دخلها تحت اسم منتحل وذلك بمساعدة سكرتير الداخلية الذي هو
أحد أعضاء النهلست السريين »

فصاح الجنرال ملا كوف بأعلى صوته

« وهل اسبنسكي سكرتير الداخلية من هؤلاء الاقوام؟ »

« ليس منهم فقط ولكنه أشدهم دهاءً وأوفرهم مكرماً وهو الذي سهل له
سبيل الدخول لان يكون هو وصهره كولدنبيرغ بين خدمة القيصر في ذلك السفر »
فضحك ملا كوف قائلاً

« ها ها! الآن نجلى لي ذلك اللغز العظيم - الآن تفتح أبواب المجد

أمامي - تكلم تكلم ولا توجز »

« ولما بلغ بطرسبرج في ذلك الليل المدلم تحت عصف الزوابع وقصف
الصواعق شاهده أحد الجواسيس ذاهباً الى محل صهره كولدنبيرغ وفيما كان
البوليس ذاهباً لالقاء القبض عليه ركض أحد جواسيس النهلست وهو في الظاهر
أحد أعضاء جواسيس بطرسبرج واسمه ديمتراكي فحذره وخرج لا يلوي على شي
وقبل أن بلغ البوليس بيت كولدنبيرغ كان غورنشا كوف فلا ديمير قد خرج من
النافذة التي في أعلى الحائط وبلغ السطح الذي هو بأسمه وهذا هو السبب الذي
لأجله لم يعثر البوليس له على أثر »

فضرب الجنرال رأسه بيده عدة مرات وهو يحرق الأرم من الغيظ ويقول
« أديمتراكي أيضاً نهلستي؟ ذلك الرجل الذي كنت أظن أنه... » ثم استدرك
فقال « ذلك الرجل الذي كان رئيس الجواسيس يظنه آمن عماله هو أيضاً نهلستي؟
» هو نفسه يامولاي الذي حذر غورنشا كوف ولكن هذا تمكن من الانحراف
في سلك خدمة القيصر مع نسيبه كولدنبيرغ ولما أصبحت الآلة على وشك
الانفجار تركا القطار يحملان جوازاً مزوراً ثم عاد الى انكائرا وهما الخادمان

الليدان فُقدوا من القطار عند حادثة الانفجار»

فأبرقت أسرة الرجل وهو يدون ما رام من هذا الحديث ثم نظر الى قاتلا

« وماذا ينبغي غورتشا كوف فلاديمير من الحضور الى باريس؟ »

« الغرض من ذلك احباط مساعي رجل مهم من الروس قدم باريس منذ

عدة أيام واسمه شبيه باسم حضرتك يا مولاي ولكنك أنت تاجر وذاك رئيس

جواسيس روسيا فقد قدم هذا الموظف الى عاصمة الفرنسيين ليثير حرباً عواناً

على النهلست »

« لقدق في هذه المرة ملا كوف بي وقد أوجس ريبة ولكنه أظهر التبسم

وعدم المبالاة سائلاً »

« هل غير رئيس الجواسيس هذا على أمر مهم؟ »

« حدث بعد حضوره الى باريس أن البوليس السري اكتشف وجود

قنابل ديناميتية في منزل أحد هؤلاء الاقوام فسلم الى الحكومة الروسية وهذا

الامر قد حير غورتشا كوف غاية الحيرة لان الرجل نبؤفسكى كان قد حذر

قبل ذلك بعدة من أيام أن البوليس السري الفرنسي سيقبض منزله فلم يفهم

غورتشا كوف كيف أمكن بعد ذلك العثور على هذه القنابل في منزله »

- « ولكن كيف علموا ذلك حتى أنهم تمكنوا من تحذيره؟ »

- « مولاي ان هؤلاء النهلست هم أبالسة في صور بشر وشياطين في ثياب

حملان فقد رقبوا خطوات رئيس الجواسيس واكتشفوا رسالاته فان الخادم

الذي أحضره معه الى هنا من بطرسبرج لم يكن سوى واحد من هؤلاء الاقوام »

فتميز ملا كوف غيظاً وثارت في رأسه سورة السخط ونظر الى قاتلا والشرر

يتطاير من عينيه

« هل كان خادمي سلتك نهاستياً؟ »

« أنى أقص على سيدي ومولاي حديثاً يختص بالجنرال ملا كوف رئيس

الجواسيس الروسية ولا شيء له من العلاقة بأمر مولاي الذي حضر الى هنا

ترويحاً للنفس من التجارة »

فاحمر ملاكوف ورفض برجله الارض على هذه الهفوة ثم نظر الي قائلًا
« ان ملابسة الاسمين قد أدت بي الى هذا الشطط فأكمل حديثك »
فعدت الى ثمة المقال غير مكترث

— « ولما كان الامر كذلك استنتج غورنشا كوف أن جواسيس الجنرال
ملا كوف أنفسهم وضعوا هذه القنابل الديناميتية ليتيسر لهم بذلك تسليم نيتوفسكى
الى الحكومة الروسية ومحاكمته هناك ومهايك من الامر فان الرجل قد سلم
وحوكم ونفي الى سيبيريا ولكن الأمر المهم الذي أشغل أفكار غورنشا كوف
هو اختفاء ابنة هذا الرجل فانها ذهبت وحتى الآن لم تعد و بعد التفتيش والتنقيب
الطويل انجلت لهم واقعة الأمر وهو أن الجنرال ملاكوف نفسه رمى بها في
نهر السين »

فوقف ملاكوف على قدميه وقد اصفر لونه وغارت عيناه وهو يقول
« أبلغ من حجة هؤلاء القوم أن يلصقوا بي هذه التهمة ؟ »

« اني اطلب الى مولاي ألا تأخذه حدة الغضب وأكرر على مسامحة مرة
أخرى اني أقص عليه حديث ملاكوف رئيس الجواسيس لا ملاكوف
التاجر الروسي »

فنظر الي باسمًا ثم قال

« أنت هو الرجل الذي أطلبه منذ سنين فان كل جواسيسي بلداء وليس
لهم أقل نفع فقد وضعت الآن من الافادات في يدي ما يؤهلي لمنصب
وزارة الداخلية »

« وأنت يا مولاي هو الرجل الذي أطلبه منذ سنين عديدة فان لي أيضاً
كثيرين من الجواسيس البلداء الذين ليس لهم أقل نفع »
فلم يتنبه ملاكوف الى جوابي اذ كان منشغلاً بتعليق حواشي في كتابه ثم
التفت الي قائلًا وهو يبسم ابتسامة الفوز

« أيمكنك القاء القبض على غورنشا كوف هذا ؟ »

« سأضعه بين يدي مولاي بعد لحظة من الزمن ومقابلة لهذه الخدمة العظيمة

أرجوه أن يوقع امضاءه على هذه الاسطر الوجيزة »

ثم تقدمت اليه وسلمته ورقة فيها ما يأتي

« أنا الجنرال ملاكوف رئيس البوليس السري والجواسيس الروسيه أقر وأعترف ان القنابل الديناميتية التي وجدت في منزل بنتوفسكي انما وضعت عمداً بيد بعض الجواسيس الروسيين في باريز لتذويب رجل بري ، ولذلك أطلب الافراج عن هذا الرجل واعادته من المنفى »

فنظر اليّ غاضباً باحتقار وقال

« ما معنى هذا ؟ »

« المراد من ذلك أن تكفر باعادة هذا الرجل من منفاه عن بعض الأثم

الذي ارتكبه في قتل ابنته »

« أمجنون أنت »

« هل الحديث الذي شرحته لك حديث مجانين ؟ »

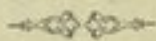
« ما ذا يعنيني ويعنيك من كل هذا ؟ »

« يعنيك أنت لأنك ملاكوف جنرال البوليس السري والجواسيس الروسية

في سائر الامبراطورية ويعنيني أنا لأنني غورنشاكوف سرجيوس فلاديمير جنرال النهلست في سائر العالم »

فانقبض الرجل كما لو أنه جرى الى أعضائه تيار كهربي عنيف وجحفت عيناه واكفر وجهه كأوجه الموتى ووقف تنفسه ولكن لم يكن إلا مثل غمض الجفن حتى وثب نحو المسدس ولكنه لم يخط سوى خطوة واحدة انعدمت بعدها خنجري في صدره فأن أنه طويلاً وانقلب الى الورا جثة لا حراك بها

وفي تلك الليلة بينما كنت مسافراً في القطار من باريس عثرت على خبر في أحد أعداد جريدة الدايلي مال مفاده أن رجلاً يسمى أو بندورف في لندراوجد قتيلاً في غرفته دون أن يتمكن أحد من الوقوف على أثر للقاتل



الفصل الثالث عشر

« شرارة الثورة »

ولبت أمرنا على هذا المنوال بين هبة وضجعة ورقدة ونهضة الى أن استمرت الحرب اليابانية الروسية فكان ذلك في تاريخنا فجر يوم جديد طلعت في سماه شمس جديدة نمبي مناميت الآمال وتنمش ذابل الرجاء لأننا رأيناها الوسيلة الوحيدة التي ننال بها المنى ونجد ضالتنا المنشودة وكنا نتوقع ونتمنى من صميم الفؤاد فشل دولتنا في هذه الحرب لأن ذلك يفتح باباً جديداً لنا في إثارة خواطر الأمة الروسية بأسرها ويتاح لنا أن تقوم بحركة عامة تختلف عن سائر الحركات والأعمال التي قد قمنا بها حتى الآن وذلك باحداث ثورة عامة في البلاد شبيهة بالثورة الفرنسية تهزها عروش الملوك وتميع قلوب الأمم

فاذا تبينت ذلك فقهت الأسباب الباعثة بفريق من كبار الأمة ومقربي البلاط الامبراطوري الروسي الى المناداة علناً بوجود اشهار الحرب على اليابان مع علمهم أن روسيا ليست في شيء من الاستعداد الى ذلك وقد أطلق على هذا الفريق لقب حزب الحرب وما هو سوى أعضاء نهلستيين سرابين في خدمة الحكومة الروسية

واقدم كان القيصر نقولا الثاني كارهاً كل ما من شأنه إثارة هذه الحرب جانباً بكايته الى السلام وبقى يسعى الى ذلك جهده ويأمل حل المعضلة بالطرق السلمية حتى انه بعد أن رفع اليه سفير اليابان بلاغاً يندره بانقطاع العلاقات السياسية بقي محتجج في صدره هذا الأمل الكاذب الى أن باعنت بوارج اليابان الاسطول الروسي في بورت آرثر في حلك الليل ونسفت بعض المدرعات بالتوربيد خلسة واعتبالاً فأصبحت الحرب إذ ذاك ضربة لازب اضطرت روسيا الى ركوبها مكرهة غير مخيرة ولما استمرت الحرب أصدرت أوامري الى سائر لجان الثورة في روسيا أن تكون جميعاً متأهبة للاقدام على عمل عظيم برن صداه في سائر أنحاء الكرة الأرضية

وتتشجع له روسيا من أقصاتها الى أقصاتها
وليث الأمر على هذا المنوال حتى حملت الينا الانباء البرقية خبر حصار
بورت آرثر فعلمت أن الساعة التي سنقوم فيها بتلك الضربة الهائلة قد اقتربت
ولذلك عقدت مجلساً في لندرا مؤلفاً من نخبة أعضاء النهلست وبقينا نتباحث فيه
حتى مطلع الفجر فقرر رأي سائر الأعضاء على القيام بحركة عامة في سائر الأنحاء
الروسية تكون تيجتها ثورة هائلة تذكر العالم بأيام لويس السادس عشر وحكم
الأعضاء بوجوب ذهابي الى روسيا حيث كان قد سبقني الى هنالك الرئيس
السابق بيروف منذ زمن طويل لتمهيد الصعاب واعداد وسائل الثورة

ورأينا انهاضاً لهم وتحريراً للخواطر أن نشعل جذوة الثورة ليس في روسيا
فقط ولكن في سيبيريا وسائر الاصقاع البعيدة بحيث يكون اضطرابها في وقت
واحد ولما كان يتندر تسهيل المواصلات والرسائل الى تلك الأنحاء الشاسعة ضربنا
سقوط بورت آرثر موعداً للقيام بهذا العمل الخطير
فلم أبطل بعد هذا عن التعجيل بالسفر الى روسيا ولما بلغت بطرسبرج
اجتمعت بيروف ولجنة الثورة هناك فأقمنا اسبوعين من الزمن ونحن
في اجتماعات سرية دون انقطاع أتينا فيها على ما يجب تقرير عمله في بطرسبرج
ولما كان الوزير بلف ناظر الداخلية رجلاً مشهوراً بشدة الشكيمة وتصلب
الرأي والضرب على كل ما من شأنه اصلاح البلاد واقامة الدستور موضع الاستبداد
والتضييق على أعضاء جمعياتنا سواء كانوا مجرمين أو أبرياء عقدنا اجتماعاً خاصاً
للنظر في أمره فنقرر بعد المناقشات الطويلة الحكم عليه بالاعدام فلم يمر سوى
وجيز من الزمن حتى أنفذ ذلك الحكم على ما نشرت تفاصيله سائر الجرائد
الاوروية

وحدثت أثناء وجودي في روسيا حركة في الخواطر لم يحصل نظيرها منذ
وفاة القيصر اسكندر الثالث فان لجان الثورة هنالك هبت من ضجعة الخمول
ونفضت عنها غبار الذل فأخذ كثيرون من نخبة الشبان وطلبة العلم والسيدات ربات
الجمال يتواردون علينا فرادى وأزواجاً حتى فريق من عداد جواسيس

الحكومة الروسية ولكي تتمكن من معرفة الحد الذي بلغت اليه تلك الحركة أقص عليك حديثاً واحداً مثلاً يكثر من أنواعه

بعد أن زرعت بذور الثورة في روسيا عقدت النية على السفر الى ارجاء سيبيريا لتأليف لجان جديدة هناك عوضاً عن اللجان القديمة التي اندثر أمرها بسبب الضغط الشديد الذي أحدثه عليها الوزير بلف الذي لقي حتفه جزاء ذلك وكان لي غرض آخر وهو انقاذ أحد زعماء الثورة سابقاً ولكي أكون في مأمن من كل طارئ حصلت على جواز من بطرسبرج بواسطة بعض اخواننا من ذوي السطوة والكفاءة النفاذة يعلن أنني من جملة موظفي الحكومة الروسية بل ذاهب في مهمة سياسية تختص بجلالة القيصر نفسه حتى لا يتيسر لأحد ان يتمكن من القاء القبض عليّ مها كانت الأعداء الباعثة على ذلك

فقطعت في سيبيريا نحو أمن أني ميل وبينما كنت في مدينة وأنا على وشك السفر الى الأصقاع البعيدة واذا بأحد ضباط الفرسان وهو صديق قديم لي يسمى فارتنسكي ومن الأعضاء العاملين في جمعيتنا تقدم ورغب اليّ أن آخذ معي الى أركونسك أحد أصدقائه فأجبتته الى ذلك وبينما أنا أنتظر واذا بسيدة في ربيع الحياة ومقبل العمر قد قدمت الينا وعليها ثياب السفر فتأملتها واذا هي عادة تزري قامتها بالغصن الرطيب وتخلج طلعتها البدر فقال لي صديقي فارتنسكي « هذه السيدة هي الصديق الذي رجوتك بشأنه ولي الشرف أن أعرفك بها فهي السيدة ايدا سندرسكي » ولم يذكري بشأنها أكثر مما تقدم فكنت على جهل تام من أمرها والغرض الذي لأجله سائرة معي الى أقاصي سيبيريا

ولم يكن سوى طرفة عين حتى ودعنا أصدقائنا وأخذنا تقطع تلك الفيافي والتفار المغطاة بالثلوج المنرا كمة بعضها فوق بعض فجرت بنا العجلة جرياً سريعاً وبعد أن تجاذبنا أطراف الحديث وصار بيننا شيء من التعارف التفت الى الغادة التي بجانبني وقلت

« لماذا تجشمين يا سيدتي مشاق السفر الى أركونسك البعيدة ؟ »
فأجابتنني بالأفرنسية

« اعذرني يا مولاي اذا اُقيمت غرضي من هذا السفر مكتوماً » ثم تأملت لحظة من الزمن وقالت بصوت رخيم « ان ذلك لمن الأسرار التي لا يمكن الاباحة بها » ثم لبثنا سائرين بعد ذلك دون أن ننس بكلمة أخرى وكل منا غارق في أبحر هوأجسه والظاهر ان ارتجاج العجلة افضى برفيقتي الى التعاس فأغمضت جفونها الطويلة الاهداب وأخذتها سنة الكرى فسال رأسها حتى لامس كتفي فغطيت وجهها الجميل بقبعة الفرو التي على رأسها ايقاً لها من زمهرير البرد وكانت تسكلم أثناء نومها بألفاظ مقتضبة غير مفهومة وكانت دلائل الوناء والكالل بادية عليها لأنها لبثت في هذا الرقاد على هذه الحال زمناً طويلاً وأنا لا أتحرك من موضعي خوفاً من ايقاظها مفكراً في ما عسى أن يكون الغرض الذي قد بعث بهذه السيدة اللطيفة أن تحمل سفرًا بعيد المسافة يعجز عن القيام به أقوياء الرجال ولبثت على هذا المنوال كل ذلك الليل الى أن انشق الفجر ووقفت بنا المركبة بجانب خان على الطريق فلما فتحت عينيها وراأت رأسها على صدري ذُعرت واحمرت وجنتاها واعتذرت اليّ ثم نزلنا في الخان ولبثنا فيه ذلك النهار والليل التالي

ولما ارتحنا من مشاق المسير واصلنا السفر فاذا وجدنا خاناً على الطريق نزلنا فيه والآتابنا المسير ولبثنا كذلك أياماً وأسابيع تقطع تلك الثلوج حتى جاوزنا أو شيم وأومك وكوليفان الى أن بلغنا نومسك بعد سفر ألف ميل فكانت ايداسندرسكي في هذا السفر لغزاً من الألغاز التي لم أتمكن من حلها وتبين لي أنها سيده ذات صلة بالأشراف والأمرء لأنها كانت تقص عليّ أحاديث أقوام من أصدقائها في بطرسبرج يعدون في أعلى طبقات الأمة وأشراف أسرها وكنت أظنها سيده من مقصورات الجمال وربات الحدور لما رأيت من ظرف حديثها وأدب كلامها ولكن لما ذكرت أنها صديقة فارتدسكي الذي اشتهر في بطرسبرج بالتردد على محال اللهو وبيوت الحلاعة ظننتها خلاف ذلك

ولقد التقينا في أثناء هذا السفر الطويل بكثيرين من السجناء الذين أناخ عليهم الدهر بكل كلكله فمشوا يمجرون سلاسل الذل وقيود العبودية وسط تلك الثلوج الكشيفة واليأس قد كتب على أوجههم أسطراً من التعاسة والشقاء فكانت تنظر

اليهم ايذا يعيون ملوها اللطف وقلب تختلج فيه عاطفة الحنو ويندا هي تنظر الى هو لاء التعساء واذا بواحد من القوزاق رفع سوطه وضرب به ظهر امرأة من المنقبين ضئيلة الجسم شاحبة اللون فأثار ذلك حنق ايذا ونظرت الي قائلة - « ما أظلم الشريعة الروسية ؟ »

فالتفت اليها وأجبتها

- « الافضل يا سيدتي أن لا يتفوه الانسان بمثل هذه الألفاظ في هذه البلاد لان انتقاد أعمال الحكومة الروسية قد يعود على المنتقد وبالاً وخسراناً »

- « لا يهمني ذلك ولو انك علمت بعض ما أعلم مما يجري في الامبراطورية الروسية من أنواع المغارم والوان المظالم وأشكال الرشوة والفساد لم يكن لك الى السكوت من سبيل » وكان كلامها بالفرنسية لكي لا يفهم السائق شيئاً منه فأحيت رأسي نحوها وهمست في أذنها قائلاً

« اذا يا سيدتي أنت في عداد النهلست »

فدعرت لهذا الكلام ذعراً شديداً وارتجفت أعضاؤها واصفر لونها ثم مسكت يدي قائلة

« من أخبرك ذلك وهل فعلت أمراً فثيت به سري ؟ »

« ان في كلامك اشارة بيته الى ذلك أما الآن وقد اكنشفت هذا السر أفلا تبوحين لي بهذا السر الآخر العظيم الذي تعجبين هذه الأسفار لأجله ؟ » فارتجفت أعضاؤها ثم نظرت الي قائلة

« أستحلفك بالله ألا تعود فتفتح لي هذا الحديث مرة أخرى فان السائق قد يفهم شيئاً منه وعند ذلك نصبر كلانا في عداد الأموات »

فأخذت يدها بيدي وهمست في أذنها الكلمة النهلستية ثم قلت

« أبقى عندك شك في اخلاصي ؟ »

« اني أثق بك غاية الثقة ولكن ماضي قائم كالليل »

« ألا نسمحين لي بمعرفته أفلا يمكنني تخفيف شي منه ؟ »

« ان ماضي مشوه بالتحائلة والمحادعة ولو عرفته لا احتقرتني فالأفضل بي أن

أحفظه مكتوماً طيّ صدري »

« ولكن أخبريني شيئاً واحداً وهو هل فارتسكي ولي أمرك ؟ »

فرفعت نحوي عينيها المغرورقين بالدموع ثم قالت

نعم « هو - هو صدقي الوحيد »

فظننت سوءاً في الأمر ولمت نفسي على إلحاحي في سؤالها ثم نزلنا بعدها في خان فسكبت ايدي الشاي لي وللسائق على جاري عاداتها أثناء السفر فلاحظت أن السائق عند ما تناول قدحه بعد سكبته من الآلة التي نسميها في روسيا بالسموفر نظر إلى ايدي نظرة كلها حقد وضيعته ولكن لم تلبث تلك النظرة على ملامح وجهه سوى لحظة واحدة عاد بعدها إلى سكونه المعتاد فجلست وايدا تتجاذب أطراف الحديث أثناء الليل وتلك النظرة العدائية التي بدت على وجه السائق لم تبرح من مخيلتي وأنا أناجي نفسي أهناك سرٌّ لا أدريه بينها أو أنه فهم ياترى مغزي السر الذي باحت لي به

ولما انبثق الفجر كنا لا نزال بعيدين نحو ستين ميلاً عن أقرب قرية في ذلك الجوار فخرجت أروح النفس بالرياض قليلاً وأنشقت ذلك الهواء النقي وأدخن لغاقي وأنا غارق في أبحر الهواجس أفكر في ما عسى أن يكون من أمر هذه الثورة التي قد قدحت زنادها في روسيا وسيبيريا ولبثت كذلك حيناً من الزمن فلما عدت إلى الخان وجدت صاحبه قد علته صفرة الوجع وأعضاؤه ترتجف من شدة الجزع وقد بلغ منه الهلع مبلغاً عقده لسانه وأعدمه النطق فأدركت أن نائبة قد حلت في ذلك الموضع فلم يفه بكلمة ولكنه قادني بيدي إلى داخل المنزل فشاهدت منظرًا تقبضت له أعضائي خوفاً ودهشة وذلك أن سائق مر كبتنا واسمه بلزنسكي كان موسداً على فراش من القش وسائر ملابسه عليه وفي صدره طعنة نجلاء بلغت قلبه وهو جثة لا حراك بها

أما ايدي فانها لما خرجت من غرفتها وعلمت بما حصل تبدت عليها لوائح الهلع والذهول ولم تدخل غرفة القتل لأنها قالت أنها لم تطلق مشاهدة مثل هذا المنظر الفظيع ثم دنت مني وأعضاؤها ترتجف ارتجافاً وهمست في أذني بالفرنساوية

أن نعجل بالمسير دون أدنى إبطاء فلما أخبرتها عن عزمي على التوجه الى أركوتسك لكي أبلغ البوليس خبر هذه الجريمة بدا على وجهها من ملامح الارتباك والمايرة ما دعاني الى الاشتباه بأمرها وخصوصاً لما بدا منها من الإحاح الشديد في متابعة السير دون إبطاء ثم لاحظت على رسع إحدى يديها خدشاً صغيراً فزادت الدلائل الباعثة على الاشتباه حتى أصبحت على يقين أنها هي الجانية فناجيت نفسي قائلاً ان هذه الغادة الهيفاء رفيقتي في هذا السفر ليست سوى قاتلة وسفاكة دم ولما بلغنا أخيراً مدينة أركوتسك نزلنا في خان وكان الوقت أصيلاً فتناولنا الطعام وارتشفنا الشاي وكانت ايدينا صفراء اللون مضطربة الملامح ولكن كل ذلك لم ينقص شيئاً من جمالها الفتان فلم يكن سوى بضع دقائق من مناولة الشاي حتى اختفت عن الابصار ولما لم أجدها سألت عنها أحد الرجال الذي كان يتدفأ في جانب النار وكان قد وصل في تلك اللحظة وهو ينفض الثلج عن حذائه فقال لي أنه شاهدها وهو قادم داخله سراي الحاكم ثم تبسم ووقف على ذلك أن حضرة الحاكم من أرباب الذوق السليم وأن له خبرة تامة بالجمال والجماليات فلم أتوقف لحظة بعد هذه الافادة بل تركت المنزل وتوجهت الى سراي المحافظة التي لم تكن تبعد عنا سوى بضع خطوات فعلمت عند بلوغي الموضع من الحارس الخارجي أن سيدة قادمة من سفر قد دخلت الى مقابلة المحافظ فأخذت أحد أتباع الحاكم على حدة وبعد مناقشة وجيزة في أمر السماح لي بالدخول ففتحته بمائة روبل فأدخلني الى السراي الفسيحة الى أن بلغ بي غرفة جميلة الاثاث لاشي يئنها وبين غرفة المحافظ سوى ستائر كثيفة مدلاة من السقف حتى أرض الغرفة ثم تركني وانصرف فما أصغيت الا قليلا حتى سمعت صوت رجل أجش يقول بصوت عال

« اذا قد حضرت بعد هذا الغياب أيتها السيدة اللطيفة ؟ »

فأجابته السيدة

« نعم عدت بعد هذا الغياب »

فعلت من الصوت أن السيدة إنما هي ايديا سندرسكي فتطلعت من بين

الستائر دون أن يتمكن أحد من رؤيتي فوجدت أنه يمكنني مشاهدة كل ما يحدث داخل تلك الغرفة التي هي أمامي فرأيت في منتصف الغرفة موقدا فيه نار متأججة اللهب والى جانبها واقف رجل كهل بلباس الحرس القيصري الأبيض و صدره مملوء بالوسامات التي تتألق تألق النور وأمامه واقفة ايديا يعلو وجهها الاصفرار ولكنها ثابتة الجأش بראהة المقلتين كأنها ملكة في قصرها ثم رأيتها تكرر جوابها الاول على مسامع المحافظ ونقول له بعزم ثابت

« نعم عدت بعد هذا الغياب ولكن أخبرك يا جنرال زغولوسكي أي أود الآن التحرر من ربة هذه الاعمال الشاقة التي اضطررتي الى القيام بها منذ بضع سنين عند ما كنت رئيس البوليس السري في بطرسبرج فاني كنت عندئذ فتاة نهلسية لم أختبر شيئاً من أحوال العالم فالقيت القبض عليّ و بعثت بي الى المناجم ثم خيرتني بعد ذلك أن تمنح لي حريتي وتبقي على شرف أخي العسكري على شريطة أن أصير في عداد هؤلاء الجواسيس الادنياء الذين تستخدمهم لتقصاء أوطارك فسلمت لك حينئذ بذلك لاني كنت في ريعان الصبا لم أكد أدرج من خدر والدتي وقد لبثت الآن في هذه الخدمة الممقوتة نحواً من ثلاث سنين فقامت بهذه الواجبات المحجلة التي وضعتها عليّ قياماً أدى الى نفي كثيرين من الأقوام الأبرياء الذين يُسامون في هذه الدقيقة ضروب الذل وأنواع العذاب في المناجم التي هي في جوف الارض أو الاصمقاع في أطراف سيبيريا بينما حضرتك جالس هنا تنعم في هذا القصر الملكي برغد العيش وبدخه وتظهر أمام قيصرك مظهر الرجل العظيم الذي يكشف أسرار البشر ودسائس الاقوام ويفقه ما تكشف الصدور وما تكن »

فأجابها المحافظ بحقق شديد

« ولكن ماذا يعينك من ذلك وهل يصح أن يكون حاكم نظيري عرضة لانتقادات فتاة مثلك؟ وعليك أن تضيي عينيك على الدوام أنك أحد عمال البوليس السري وأن واجباتك تقضي عليك بالسهر على أمن جلالة القيصر وأنه لا بد لك من البقاء كذلك رضية أم لم ترضي وإلا فاعلمي أنك

الآن في وسط سيبريا وأنه لا يكافني نفيك الى تلك المناجم الرهيبة سوى وضع امضائي على هذه الورقة التي اُمامي فتصرفين بقية حياتك وأنت تجرّين سلاسل الذل وقيود الاستعباد وهناك تُعلمين من جنودي القوزاق كيف تكون الطاعة التي نسيتمها الآن فاذهبي أيتها الحقا، ولا تريني وجهك في ما بعد «

ثم مدّ يده ليقرع الجرس فقدمت ايديا نحوه كاللبوة وقد أخرجت قائلة « لا بُد لك من سماع سازما نجمات لأجله هذه المشاق لا قوله لك فاني أخبرك أنني قد أتيت الى هنا لأخطرك اني عازمة على أبدال هذه الخطوة الممقوتة التي أنا سائرة فيها - جئت لأخبرك أنه يترتب عليك توقيع امضائك على هذه الورقة التي بيدي التي تمناني بها من هذا القيد الذي أجبرت على وضعه في رجلي وألا يكون للحكومة بعد هذا حق في الفاء القبض عليّ من جراء ذلك والا فاني... »
« أتهددني أيتها الفناة فأرجوك أن تغيدني ما مبلغ اقتدارك اذا رفضت طلبك؟ »
« لقد نصبت لي قبلا شراكك اللعينة فوقعت بها أما الآن فأنت واقع في شراكي فانك اذا رفضت بعثت الى جلاله القيصر بالبراهين الدامغة والاعتراف البيّن الذي به متعرف أنت نفسك انك أنت أنت هو الرجل الذي قتل في غسق الليل ماري سكاييا »

فاندعر المحافظ وتقبضت أعضاؤه وعلا الاصفرار وجهه وسألها بلهفة

« ولكن أنى لك معرفة ذلك؟ »

ألا تذكر أنك أنت نفسك وقعت على هذا الاقرار وهل نسيت أننا نحن الذهلت تتبعنا خطواتك واكتشفنا أمرك واضطررناك الى الاقرار فكان ذلك باعثاً على الابقاء عليك؟ أو تجهل أنني وقفت على الجريمة التي ارتكبتها مندبضة أيام وذلك أن أحد أخصائك المقربين قد قتل سائق مركبتنا في أرتنسك بطعنة خنجر في قلبه لان هذا السائق المسكين يعلم سرّ قتلك ماري سكاييا؟
فأجابها المحافظ بحنق

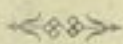
« انك تكذبين وما ذلك سوى أفك مبين أترومين أن تبعثي بي انا نفسي الى مناجم سيبريا؟ ولكني أقسم لك انك ستموتين في حضرتي موتاً إذا بدلي من قتلك بيدي »

ثم أشهر في وجهها مسدساً وخطاً نحوها فلم يكن سوى مثل وميض البرق حتى رفعت تلك الستائر الكشيفة وانطلقت نحوه انطلاق السهم ولكن يد الرجل كانت أسرع من خطوى فانطلق المسدس ولم تصب الرصاصة الغرض بل مرت فوق رأس ايديا وكسرت مرآة كبيرة في الجدار المقابل فهجمت عليه هجوم المستقل واختطف المسدس من يده قائلاً

« ان هذه الفتاة قد نيط الاعتنا بأمرها في هذا السفر بي ولقد سمعت سائر ما دار بينكما من الحديث وانا سنبقى هنا الى أن توقع امضائك على هذه الورقة والآن لبثنا أمامك طول الدهر »

فتهددني بالقاء القبض عليّ واكني هزات تهديداته وأجبرته أن يبدي جوازاً يعلن أي في مهمة سياسية تختص بشخص جلالة القيصر وان يده أقصر من أن تصل اليّ بشيء من الأذى فتردد في الأمر نحواً من نصف ساعة وهو يفكر تفكير من لا يجد له مناصاً الى أن وقع امضاه أخيراً على الورقة وقبل خروجنا من الغرفة التفتت اليه ايديا قائلة

« اذا أمرت بالقاء القبض عليّ فان أخي يبعث باقرارك الى جلالة القيصر » فسألت ايديا بعد نزولنا قائلاً لها « ومن هو أخوك ؟ » فقالت ان أخي وولي أمرى هو صديقك فارتنسكي فصحت عند ذلك صيحة الدهشة والسرور وقلت لها انها ستكون في أثناء هذا السفر أعز لدي من شقيقتي



الفصل الرابع عشر

« جدوة من نار »

واكي تفقه سرعة حركة الخواطر التي تهبأت في نفوس القوم للتحفز الى الثورة بسبب اللجان التي أنشأتها في أقاصي روسيا لا بد لي من سرد حادثة واحدة تكون دليلاً على كثير من أمثالها على النهضة التي حصلت من أنفس القوم وهبوا بهم لكسر نير الظلم وقيود الاستبداد التي لبثوا راضخين لها مئات من السنين دون

أن يبدو بشأن ذلك تدمراً أو يرفعوا صوتاً
فاني بينما كنت راجعاً من تلك الاقصاء السحيقة رأيت قصر المحافظة
في بلدة كنت قد أنشأت فيها من منذ بضعة أشهر أثناء مروري الى سيبريا لجنة
تورية واذا ذلك القصر قد أصبح أطلالاً بالية ورسوماً دارسة فسألت أحد
الأعضاء الذين خفوا لاستقبالي عن سبب ذلك فظفر الي الرجل نظرة المدهش
لابداء مثل هذه الملاحظة ثم قص علي الحديث الآتي

ان المحافظ الذي كان يقطن هذا القصر الذي رأيتُه أثناء مرورك هنا وقد
أصبح الآن رماداً انما كان رجلاً فظ الأخلق شرس الطباع ظالماً عاتياً وكان
وصياً على شاب يسمى درنقش اغتصب منه أملاكه الشاسعة ولكنه سمح له أن
يقيم معه في داره وكان المحافظ شديد الوطأة على الفلاحين الذين بلغ بهم الفقر
المدقع مبلغاً فاحشاً وخصوصاً أن تربة هذه الأرض قاحلة لا تنبت سوى النزر
القليل مما يقوم ببعض أود هؤلاء الفلاحين المساكين وفي أيام الشتاء يشتد البرد
القارص الى حد لا يكاد يطاق وبسبب انزاف مال الفلاحين لم يبق لهم ما يمكنهم
من الحصول على وقود أثناء الشتاء أو شيء من ضروريات المعاش لسد جوعهم
وحدث ذات يوم ان المحافظ كان جالساً في قصره المنيف حيث كان يعيش
بالبدخ والاسراف ان كاتم أسراره دخل عليه قائلاً

« ان على الباب يا مولاي فريقاً من الفلاحين يودون مشاهدتك »

فخدق فيه المحافظ وقال

« ماذا يروم هؤلاء الأقوام مني ؟ »

« لم يفيدوني يا مولاي ولكنهم يطلبون مقابلتك نفسك »

فوقف الحاكم عابساً وقال « اذا كان هؤلاء الأقوام قد حضروا ليثوا لي

شكواهم أو ليتدمروا من الحالة التي هم عليها فانهم سوف يدركون أي منقلب

ينقلبون - دعهم يدخلون »

ولم يكن سوى دقيقة من الزمن حتى دخل هؤلاء الأقوام على المحافظ وهم

في ثياب رثة وأعضاؤهم ترتجف من شدة البرد فخدق فيهم المحافظ قائلاً

« ماذا تريدون من مقابلتي وكيف تجسرون على الحضور الى علي مثل هذا المنوال؟ »
فخاطبه كبيرهم وقد كَفَّرَ بين يديه وسجد
« ارحمنا أيها المولى العظيم فاننا قد أتينا لتبرأ مني على أقدامك »
« ماذا ترغبون؟ »

« أتينا لنقص عليك ان الجوع قد أخذ منا ما أخذه وقد أصبحنا في حاجة الى كل شيء ولذلك فان عبيدك لا يتمكنون من دفع أجرة المنازل التي اعتدنا قبلاً دفعها وغرضنا الآن أن نستطيع منك الاذن لتتقبل علينا قليلاً ريثما يمن الله علينا بالفرج »
وكان سائر هؤلاء الفلاحين وقوفاً أمامه باحترام وقبعاتهم الزنة بأيديهم وعيونهم مطرقة الى الأرض لا يجسرون على رفعها نحوه وأعضاؤهم ترتجف من الخوف فنظر اليهم المحافظ بامتهان وقال

« لا بد لكم من دفع ما ترتب عليكم دفعه فاذا أيتم عدت ذلك عصياناً وأنتم أدري ما يجعل بكم من العقاب أثر ذلك »

فعاد كبيرهم الى الكلام وهو رجل قد أحنى الكبر ظهره وبيض المشيب رأسه
« ان ما تطلبه منا الآن هو فوق الطاقة البشرية لأنه ليس لنا ما نسد به جوعنا حتى انه لو أتى أبونا القيصر نفسه وطلب منا ذلك لم نكن لنقدر على القيام بشيء منه »
« لست من الذين يحبون تكرير الكلام ولذلك أخطر تكلم أنه لا بد لكم من دفع سائر ما عليكم خلال اسبوع واحد من الزمن »

« ولكن ذلك محال لأنه ليس لدينا شيء من الدراهم ولا ما نبيعه للحصول على ذلك »

« لا تكثروا أمامي الكلام فقد أخبرتكم انه لا بد لكم من دفع سائر ما عليكم خلال اسبوع واحد وانصرفوا الآن غني الى مواضعكم »

« ألا يوجد في قلبك شفقة على أطفالنا ونسائنا ألا يرق قلبك على هؤلاء المساكين الذين يتضورون الآن جوعاً؟ »

فكان جواب المحافظ الأخير

« انصرفوا غني وعودوا بالدراهم بعد اسبوع »

وكان الشاب درنقش جالساً بجانبه فحاول أن يستعطفه فلم ير سوى أذن صماء وقلب قدّم من جمود فانصرف القوم من حضرته وقد علت وجوههم صفرة الوجع ولما انقضى الاسبوع ولم يكن هنالك ما يسدون به مطالب المحافظ انماالت السياط على ظهور القوم تلدغهم كالافاعي فخلق الأهالي لذلك حنقاً شديداً وكادوا يشورون على ذلك الحاكم العاتي ولكنه أحضر شيوخ البلدة وجلد كلاً منهم مائتي جلدة في الساحة العمومية

وكان درنقش يصرف أكثر أوقاته في التنزه في الجبائن والأحراج تخلصاً من وصيه العاتي وبينما كان مرة كذلك بجانب الأشجار رأى على مقربة منه ابنة بارعة الجمال بديعة الحسن ولم تكن الفتاة تشعر بوجوده الى جانبها لما كان بينهما من الأشجار الغضة فتأمل درنقش في قامتها التي تزري بالغصن الرطيب وجمالها الرائع الذي يأخذ بالأبصار وعينيها الغاتنتين وشعرها الاسود الحسالك ووجهها المزدان بملاح الطهارة كما لو كانت ملكاً فتقدم اليها وكلما فدعرت منه ولكنها ما لبثت أن استأنست به فعلم منها أن اسمها نكامولي ابنة شتوف احد مزارعي المحافظ فتعفف بها شغفاً شديداً وتعاهدا أن يجتمعا سرّاً كل يوم في ذلك الموضع ولبثا يجتمعان على هذا الاسلوب حيناً طويلاً من الدهر وتعاهدا أن يكونا حبيبين ولما رأى درنقش من حسن أدبها ولطف معشرها ما خلب لبّه صم أخيراً أن يطلبها زوجة له من أبيها

فتوجه الى كوخ الرجل وباح له بحبه لابنته وطلب اليه أن يزوجه منها فلما سمع منه الرجل ذلك رفع يديه الى السماء قائلاً

« أنت تحب ابنتي؟ - أنت واقع في غرامها؟ - اني أستحلفك بالله أن تحول عن ذلك لأنه اذا علم المحافظ جلية الأمر كان ذلك علينا وبالاً وأورد ابنتي حتفها» فطيب درنقش خاطر الرجل وأخبره أنه يحميها من كل سوء ويرد عنها كل مكروه وانما متى أصبحت زوجته فان المحافظ لا يجسر على الاتيان بمثل هذه الأعمال البربرية فأبى الرجل مراراً ولكنه أذعن أخيراً بعد الماح الشاب الشديد فتزوج بها سرّاً في بلدة أخرى عن يد قس قام لها بالطقوس الدينية المألوفة ثم عاد

الى البلدة وبقى أمرهما مكتوماً فكانا يجتمعان في الجنائن أمامهما الزهور وفوقهما
الأشجار الباسقة والطبيعة تبسم لهما عن ثغر يفتخر بالسعادة وبينما كانا مرة على هذا
المنوال التفت اليها درنفتش قائلاً

« أود يا حبيبتني أن أعلن بعد قليل زواجنا على رؤوس الأشهاد حتى تكوني
سيدة عزيزة الجانب محترمة المقام » فأجابته قائلة

« دعنا نبقى الآن كما نحن لأنه إذا علم المحافظ أمرنا فرّق بيننا وبعث بي
الى موضع آخر كما فعل قبلاً بفتاة أخرى من هذه البلدة »

واتفق ان كان على مقربة منهما كاتم أسرار المحافظ وهما لم يشعرا به فسمع
ما دار بينهما من الحديث فقصة على سيده المحافظ

فلما عاد درنفتش الى قصر المحافظة بش المحافظ في وجهه وهش له على
خلاف عادته ثم لم يكن سوى بضع دقائق حتى نظر الى الشاب وقال له

« هل لك يا درنفتش أن تقوم لي بخدمة أحفظها لك مدى الدهر فاني في
ضيق مالي شديد وأحب أن أرفقك برقيم الى أحد أصدقائي في إحدى المدن

المجاورة فتحضر لي كمية من الدراهم التي يسلمك إياها »
فرضي درنفتش بطيبة خاطر أن يقوم بهذه المهمة وركب لساعته فرسه وأخذ

ينهب الطريق نهياً ولكنه بعد أن سار بضع ساعات خطر في باله أمر ألقمه
وهو أن الحاكم قد يكون بعثه في هذه المهمة ليوقع بامرأته شرّاً فأخذت منه

الهُواجس كل ما أخذ وبعد أن سار هنيهة عزم أخيراً على الرجوع لأنه شعر أنه
ترك امرأته وحيدة شريفة ليس لها من يحمي عنها أو يأخذ بناصرها اذا وقعت

في ضيق ثم أدار فرسه نحو الطريق التي أتى عليها وأخذ يعدو ولما عاد الى
البلدة كانت الشمس على وشك المغيب فلما بلغ الساحة العامة وجد هنالك جمّاً

غفيراً تعلق وجوههم صفرة الوجع فلم أن لا بد من نائبة قد حدثت ولما تأمل
قليلاً ذلك الحشد سمع صراخ امرأة يمزق الغضاء فلم أن الباعث على ذلك الألم

الناشي عن الجلد بالسياط ولما دنا من الموضع شاهد منظرًا تقشعر له الجسوم
وتهلل القلوب إذ رأى امرأة معرأة الى وسطها وهي مربوطة الى آلة خشبية

وأحد أتباع المحافظ يرفع سوطاً خشناً ثم ينزل به على تلك المنكودة الحظ حتى صبغ
دمها ظهرها وجرى الى الأرض ولما تفرس بوجه المرأة وجدها عروسه
فهبم الشاب على الرجل الذي كان يجلدها وأمسك يده والتفت الى المحافظ قائلاً
« ما هذا الذي أرى امامي ؟ »

فأجابه المحافظ بخشونة

« ليس لك شأن هنا والأمثل بك أن تجري إلى دار المحافظة »

« لا أسمع بمثل ذلك لأن هذه الفتاة هي امرأتي »

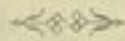
« إنني أعرف ذلك وهي غداً تكون على طريق المنفى إلى سيديريا »

ثم التفت إلى الضارب وقال له

« أجهز عليها »

فحاول الرجل منعه ولكنه قبل أن يفعل ذلك وقع السوط على ظهر تلك
المسكينة بذوائبه الرصاصية فسمع صوت كقرعة مسدس فلعن الشاب المحافظ ثم
انزع من جيبه مديحة قطع بها وثاق الفتاة ووضع وجهها الأصفر على وجهه وقبلها
بحرارة ولكنه لم يقبل عروسه بل جثها إذ أنها أصبحت في عداد الأموات وإذ
ذاك رفع نظره الى السماء وأقسم في قلبه أن يأخذ بثأر امرأته من ذلك المحافظ القاتل
وكانت لوائح الغيظ والغضب تلوح على محيا الاهلين الذين شاهدوا هذا
المنظر الفظيع ودلائل التهديد وشق عصا الطاعة تبدو على وجودهم إذ أني
كنت في عدادهم أما درنفتش فإنه تاه في الجنائن ولم يعد الا مساء اليوم التالي
فوجدني مع عدة من الاهلين واقفين بجانب دار المحافظة ولما سألتني عن السبب في
ذلك أخبرته أنا أننا لناخذ بثأر تلك الفتاة التي ذهبت أمس ضحية بربرية هذا
الظالم فانتظم في عدادنا واذا كان قد جنّ الليل دخلتُ ودرنفتش وصديق آخر
الى المحافظة خلصة حتى بلغنا غرفة المحافظ نفسه وكان اذ ذلك نائماً فلما شعر
بحركة هناك ذعر ذعراً شديداً وهب من نومه حيران وأول من تقدم اليه كان
درنفتش ويده خنجر مسلول فلما رآه المحافظ جزع جزعاً شديداً وصاح بقائلاً
« ابقِ عليّ يا درنفتش - ابقِ عليّ وارحمي »

فأجابه هذا بتهكم
« هل أبقيت على امرأتي أمس عندما رجوت منك ذلك جاثياً على قدمي
واني لأجرعك الآن كأس الحمام بيدي »
وما أتى على ختام ذلك حتى أغمد خنجره في قلب المحافظ فأن أنه عميقة
ثم سقط على الأرض جثة لا حياة بها ولما قضى على الرجل دخل سائر رفاقنا
الذين تخلفوا عنادار المحافظة وأشعلوا فيها النار وسط ذلك الليل الدامس فكان
منظراً رهيباً لم أر في حياتي مثله قط ولما تبلى صبح اليوم التالي كانت دار المحافظة
طللاً بالياً ررساً دارساً



الفصل الخامس عشر

« فلها ثورة وفيها مضاء »

لما عدت الى بطرسبرج نحو مغيب العام الماضي كانت بورت أرثر آخذة في
الاحتضار شيئاً فشيئاً بيتر جسمها عضواً عضواً وبينما كان الجنرال ستوسل يعلن
على رؤوس الأشهاد أن تلك القلعة منيعة الجانب بعيدة المنال كان عمالنا ينبثوننا
بالتفريقات السرية التي كان يرسلها ذلك القائد تبعاً الى وزارة الداخلية بشرح
فيها خطارة موقفه والاطار المحدقة من كل جانب وأنه لا يتسنى له المناضلة سوى
بضعة أسابيع اذا لم ينجده أسطول الباطليك

وكان كلما مر يوم من شهر ديسمبر الماضي أشعر بدنو تلك الساعة الرهيبه التي
وقفت حياتي ورتوتي لأجلها فتحضرت لثوب الى هذه الامنية تحفز الرئبال
وعلمت أي اذا لم أضرب في مثل هذه الفرصة السانحة الضربة الهائلة التي تقوض
اركان الاستبداد ونزع عرش الامبراطورية المطلقة في روسيا وتحدثت بذكرها جرائد
العالم والسنة الناس من أقصاء المعمور الى أقصائه ذهبت سائر مساعي أدراج
الرياح ولم أفر من الأمانى والآمال التي بنيتها بوطر وبينما كان جلالة القيصر
تقولاً الثاني امبراطور الروس جالساً في قصر الشتاء يصدر أوامره الى انحاء

منشور يا وأسطول البلطيك كنت أنا غورنشا كوف سرجيوس فلاديميرامبراطور
النهلست أصدر أوامري من قصر في بطرسبرج لا يبعد كثيراً عن قصر القيصر
الى سائر لجان الثورة في أنحاء الامبراطورية الروسية فيصدع بها ألوف من نخبة
الشبان وأشرف الامة ووزراء الدولة الذين لم يكونوا سوى عمال سر بين يرضخون
لأذنى اشارة تصدر من زعيمهم كما يرضخ اليسوعيون لسائر أوامر جنرالهم دون
أن يسألوا كيف أو لماذا

ولما انصرفت أيام العام القاهر وانبتق فجر العام الجديد أصبحت كمن على
نار الغضا أحسب الدقائق أياماً والساعات أشهراً واليوم سنة وخصوصاً أن
البوليس السري أظهر من النشاط وكثرة التقل من موضع الى آخر ما يؤخذ منه
أنه أوجس خيفة من مكيدة لم يقف حتى الآن على شيء من تفاصيلها ولكنه لم
يتبلج صباح اليوم الثالث من شهر يناير حتى أتت التلغرافات تنرى تفيد ان لم يبق
في قوس بورت أرثر منزع وان الحماية قد سلمت فكان سقوط تلك القلعة المنيعه
أشارة الى سائر لجان النهلست في روسيا ان الساعة للقيام الى الثورة العامة قد
حلت فكان روسيا و بولونيا وسائر أنحاء الامبراطورية الروسية بأسرها مخزن ديناميت
كبير وسقوط بورت أرثر شرارة كهربائية وقعت عليه فألهبته

ولا بُد هنا من بيان الأسلوب الذي تمكنت به من تحويل حركة نهلستية
بسيطة اعتيادية الى ثورة عامة التهيبت جذوتها في سائر أنحاء المملكة وذلك أني
رأيت عند قدومي الى روسيا قبل سفري الاخير الى سيبيريا أنه لا بد لنجاح
هذه الحركة من اشتراك سائر العمال فيها على اختلاف أنواعهم ومهنتهم في جميع
أطراف المملكة فعند حلول الوقت المعين يضر بورت جميعاً عن العمل لمطالب
يطلبونها من أصحاب المعامل ثم اذا مرّ على ذلك بضعة أيام تغيرت وجهة
الاضراب عن العمل واصطبغت بصبغة سياسية بحتة ومن البديهي أن العمال انما
هم جسم الأمة وقوامها فاذا امكن انضمام كلمتهم في مطالب سياسية كان ذلك
أمام القيصر وأوروبا والعالم بأسره عبارة عن مطالبة سائر الأمة الروسية بذلك
وأصبح لهذه الحركة شأن يختلف كل الاختلاف عن سائر الحركات السياسية السابقة

ولكن لا بد من القيام بذلك ونجاحه من أمرين هامين أحدهما موافقة زعماء أولئك العمال على ذلك وثانيهما أن يكون الزعماء وحدهم عاملين بسريرة الأمر وأن يبقى العمال أنفسهم في جهل تام بخصوص تحول الحركة الى غرض سياسي بعد الاضراب عن العمل ولذلك كان الغرض الذي رميت اليه عند وصولي الى روسيا جمع كلمة هؤلاء الزعماء ولما كان اكثرهم من أعضاء النهلست لم يكن هنالك صعوبة كلية في الأمر فتمكنت بواسطة هؤلاء من ادخال الباقين في عداد جمعيتنا فأصبحوا جميعاً طوع بناني يأترون بأوامري وينتهون بنواهي

وفي منتصف ليل اليوم الثالث من يناير جرت بي مركبة تسابق خيلها الرياح الى قصر منفرد في أطراف بطرسبرج تحف به الجنائن الغناء من كل جانب ويتأرجح من أزهاره أرج الروائح العطرية تنطج أشجاره الباسقة عنان الجو وتكسو نضارة الخضرة أرضه الفسيحة لا تبلغه جلبة القوم وضوضاء الجماعات بل هنالك سكون تام لا يسمع وسطه سوى هبوب الرياح وحفيف الأشجار

الى هذا القصر المنفرد المنيف سددت خطواتي بعد نزولي من العربة ولما بلغت قاعته الكبرى اذا بها غاصة بجماهير نخبة النهلست وزعماء العمال وكانت الانوار تتألق فيها تألق الشموس فلما جلست على كرسي الرئاسة تفرست في القوم فاذا هم صامتون كأن على رؤوسهم الطير وكان منظر ذلك الاجتماع مهيباً وقوراً ولا غرور فانه أعظم اجتماع نهلستي التأم في الامبراطورية الروسية حتى الآن وحري أن يكون على هذا النمط نظراً لخطارة موضوعه والغرض العظيم الذي يرمي اليه والآمال السامية التي كانت معقودة بنواصيه والنتائج البعيدة التي ترتبت عليه مما لا يزال صدها برن في الإذان حتى الساعة فانه مصدر الشرارة الاولى لهذه الثورة العظيمة التي لم يعهد لها نظير منذ أيام الثورة الفرنسية والتي لا يعلم الا الله متى تكون نهايتها فاني أقص هذا الحديث عليك والتلغرافات لا تزال ترد فراداً وأزواجاً تنقل حديث عراك عظيم ومذابح دموية شديدة وصراخ يمزق كبد الجو وآلام تهلع لها القلوب وهي آلام أمة تربو على مائة وعشرين مليوناً آخذة في الخروج من دياجير الجهل والاستبداد الى جنائن العدل والحرية ولا

بد لها قبل بلوغ ذلك أن تخوض أقدامها في دم أبنائها وتضرج أياديها بدم أطفالها
ولما استقر بي المقام في ذلك البادي الرهيب التفت إلى الاعضاء مخاطباً
« أيها الاخوان لقد التأمنا الآن للعداوة بخصوص القيام بضرر بعظيمة
تحرر بلادنا من ربة الاستبداد وتضرب على أيدي الجور وتغل عضد الظلم وتخرج
بأعظم أمة أوربية من بيداء الرق إلى جنات الحرية فهل أنتم راضون عن ذلك ؟ »
فأجاب سائر الاعضاء من دون تخلف واحد : « بلى بلى اننا راضون كل
الرضى » : فعدت إلى ثمة الكلام قائلاً : « اذا كان الامر كذلك فلا بد لي من
تذكركم أولاً أن الفرصة التي سنحت الآن قد لا يتيسر لنا الحصول عليها مرة أخرى
في مستقبل العمر فان دولتنا مشتبكة في حرب نشيب لها الولدان في بلاد سحيقة حيث
جيوش الحكومة التي هي ساعدها الاقوى بعيدة عنا لانخشي شيئاً من بأسها ووطأتها ولقد
سقط كثيرون من اخواننا جرحى في ميادين الوغى وارتدت ألوف من الاسر الروسية
أثواب الحداد فالامة الآن ناقمة على الحكومة قد دخلت هذه الحرب الشعواء دون أن تكون
من الاستعداد على شيء وكل يوم تملأ أصوات التذمر وغرضنا الآن من هذا الاجتماع أن
نحول حاسيات الامة إلى أصوات تكون رعوداً قاصفة تبلغ آذان القيصر وتحمله على منح
الدستور للبلاد والامة واعلموا أننا اذا تمكنا من نوال الدستور في هذه الآونة فليس
سقوط بورت آرثر سوى نهضة روسيا وليست بلايا الحرب الحاضرة ونوابها سوى بركة
عظيمة اذا كان من وراءها حربية مائة وعشرين مليوناً من النفوس والسؤال الذي أطرحه
عليكم الآن هو ما هي الطريقة التي يجب علينا الجري عليها في نوال الغرض الذي نسعى اليه »
فحصل على أثر ذلك سكوت عظيم ثم قام بعض الأعضاء وأجابوا عليه كما يأتي
« الطريقة المثلى هي اغتيال القيصر » - « يجب علينا قبل ذلك اغتيال العمال
الذين هم تحت سلطته » - « نقوم أولاً بأعمال ارهابية بقنابل الديناميت » -
« يجب نسف سائر مصالح الحكومة دفعة واحدة في يوم واحد » - وبعد أن تكلم
كثيرون على مثل هذا النمط عدت إلى ثمة الكلام فقلت « لا يجب علينا أن نقوم
بشيء من هذا في الوقت الحاضر لأننا كنا نقوم قبلاً بمثل هذه الضربات باسم
النهلست وأما اليوم فاننا نتكلم باسم الامة الروسية ونضرب بساعدها وها ان عيون

أوربا والعالم بأسره شاخصة إلنا فلا يلحق بنا أن نتخذ جانب العنف والارهاب مما تعود علينا تبعته باللوم ولكن الطريقة الفضلى هي أن نطلب الدستور من القمصر أولاً باسم الأمة باللين والرفق ولما كانت الأمة ممثلة بجماعة العمال ترتب أن يكون ذلك على يد هم والذي أحكم بلزوم عمله هو اضراب العملة عن العمل ولما كان زعماءهم حاضرين معنا الآن واخواننا لنا في المبدأ والرأي تيسر لنا القيام به «

وبعد مداولات طالّت نحواً من ثلاث ساعات قرّر الرأي على ما ترى

الشروط التي لا جها يضرب العمال عن العمل والتي يجب أن تلتى عليهم هي ما يأتي

(١) أن لا تزيد مدة العمل في النهار على ثمان ساعات (٢) تعيين قيمة

العمل مما تقوم به لجنة مؤلفة من العمال والنظار عليهم (٣) تعيين لجنة دائمة تكون

حكماً في مواد الخلاف (٤) أقل أجره الفاعل اذا كان رجلاً روبلاً في النهار

(٥) أقل أجره المرأة نصف روبل (٦) لا يلزم العامل بالاشتغال أكثر من

الوقت المعين وأن تكون أجره العمل في مثل هذه الأوقات ضعفي المعدل العادي

(٧) تعيين أطباء وصيادلة يقومون بحاجات العمال الصحية أثناء المرض (٨) تحسين

الأحوال الميجينية في المعامل (٩) عدم معاقبة المعتصمين (١٠) لزوم دفع أجره

العمال أثناء الاعتصاب . أما المطالب السياسية التي لا يعلم العمال شيئاً منها عند

تحول الاعتصاب الى صبغة سياسية فهي كما يلي

(١) استدعاء مجلس نواب تنتخبه الأمة بأكثرية الأصوات (٢) إيقاف

الحرب في الشرق الأقصى (٣) العفو عن سائر المنفيين والمسجونين من المجرمين

السياسيين (٤) حرية الجرائد والأديان (٥) حرية الاجتماعات والجمعيات

وترتب حركات الثورة على الاسلوب الآتي بيانه

في ١٦ يناير - يتندي الاعتصاب فيتوقف ١٢٠٠٠ عامل عن الاشتغال

في معامل بوتيلوف - وفي ١٨ ينقلب الاعتصاب سياسياً في رأس الأب غابون ٥٥

القامن العمال - وفي ١٩ يزيد عدد المعتصمين الى أن يبلغ ٧٥٠٠٠ - وفي ٢٠

يصبح الاعتصاب عاماً فيتوقف ١٠٠٠٠٠٠ عامل ويقفل ١٢٤ معمل - ويسير

المعتصبون في الأسواق ويضطرون بقية العملة الى الانضمام اليهم ويطلب الأب

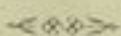
غابون باسمهم ان ٥٠٠٠٠٠٠٠ يودون مقابلة القيصر
وعند بلوغ هذا الحد من المناقشة قام كبير زعماء العمال وقال
« اذا كان لا بد من نجاح المسمى في اعتصاب العمال فلا بد من إيجاد وسيلة
تتمكن بها من اسعافهم بالدرهم والآ ذهبت سائر مساعينا ادراج الرياح لأن
العمال اذا أضر بوا اليوم عن العمل عادوا اليه غداً بحكم الضرورة ولما كان عدد
المعتصمين في بطرسبرج وضواحيها يبلغ خمسمائة ألف نفس فما قولك بسائر العمال
الآخرين في موسكو ولوتزو وسيبيريا وبولونيا وغيرها ويلزم للقيام بأودء اثلاث
هولاء المساكين عدة ملايين من الروبلات وهو مما لا قبل لنا به ولذلك أرى
ان القيام بالثورة دون هذا السند الوحيد العظيم حبوط مسمى » فحصل على أثر
ذلك سكوت عميق دام بضع دقائق لأن سائر الأعضاء أدركوا أن الرجل قد
أصاب المحز في اعراضه . فعلت إذ ذاك ان الساعة قد حانت للاجتهار بما بقي
حتى الآن مكنوناً عن اخواننا في بطرسبرج فوقفت وسط ذلك المحفل الرهيب وقلت
« ان الثورة التي نحن قائمون بها إنما هي ضرب من الحرب وقد قال نابليون
العظيم انه يلزم للحرب ثلاثة أمور أولها المال وثانيها المال وثالثها المال ولو لم أكن
على يقين من ذلك لما كنت قد دعوتكم للاجتماع هذه الليلة للقيام بأمر خطير
يقنضي له ملايين من الروبلات وعليه فاني أعلن الآن على رؤوس الاشهاد أن
ثروتي البالغة خمسين مليون روبل والتي هي الآن في مصرف انكلترا ستكون
جميعها تحت إمرة لجنة العمال ليوزعوها عليهم أثناء الاعتصاب ليس في بطرسبرج
فقط ولكن في موسكو وسواها من المدن والأمصاير الروسية وستكون برمتها هنا
في نحو أسبوعين من الزمن » - فضج الحاضرون لذلك ضجيجاً عظيماً وصفقوا
تصفيق الفرح والحبور حتى بلغ هتافهم عنان السماء

ولم يمر أسبوعان من الزمن حتى وردت حوالة مالية على مصرف بطرسبرج
بقيمة خمسين مليون روبل باسم أعظم تاجر هنالك وهو واحد من عدادنا فكانت
حوالة لم يسبق لها مثيل في تاريخ تجارة روسيا فلم نلبث أن وزعنا جانباً كبيراً
منها في ٢١ يناير أي مساء يوم الثورة وبعثنا بالباقي الى موسكو وسائر المدن

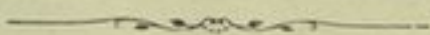
والأصقاع الروسية حتى حدود سيبيريا وكان ذلك أعظم باعث على الاشاعات التي
تواترت بخصوص الاسعافات المالية التي وردت روسيا من مصادر يابانية انكليزية
فاستعرت في اليوم التالي نيران الثورة الروسية التي هي فجر ثورات القرن العشرين
ونقاطر أولئك العمال البسطاء مئات ألوف الى قصر الشتاء وهم يظنون أنهم ذاهبون
لتناول ايقونات من يد امبراطورهم فابتدأ يومنا الأول الذي سُمي بيوم فلاديمير
خطأ وصواباً - خطأ لأنه نسب الى الفرانديوق فلاديمير وصواباً لان اتباعي
ينسبونه الى غورنشا كوف سرجوس فلاديمير

ولقد علمت يا عزيزي الطيب من الرقيم الذي سقط مني أسرار مقتل
الفرانديوق سرجيوس والبواغث التي حملتني على مهاجرة الربوع في مثل هذا المين أما
السبب الذي لاجله ندمت على إشعال جذوة الثورة فهو لاني رأيت اني مطوح بيلادي
الى وهدة الخراب واني أساعد اليابانيين علينا في حين نحن أشد فيه حاجة الى الاتحاد
منافي سواه ولما طالمت الاشاعات المتعلقة بشأن طلب روسيا الصلح على شروط
تخجف بحقوقنا وتنزل من قدرنا أمام أوربا والعالم بأسره كدت أذوب حسرة وأسى
ولا داعي أن أقص عليك تفاصيل يوم فلاديمير وما تلاه من الوقائع الخطيرة
والحوادث الجسيمة لأن جميعها بنات أمس ولا تزال هذه الثورة الرهيبة حتى
الساعة في سعي ولهب اذا خمدت في مدينه شبت في أخرى وسيكون لها في ارتقاء
الجنس البشري ما كان للثورة الفرنسية نحو مغيب القرن الثامن عشر فاذا كنت
قد أسأت بها الآن الى وطني فمن حيث أردت الاحسان فانك لا ترى الساعة
الآدموعاً مذروقة ودماء مسفوكة وحسرات تلوح حسرات وزفرات تلوح زفرات
ولكنه سوف يأتي زمن وما ذلك ببعيد ترى فيه الأمة الروسية رافلة بأثواب المجد
وعلى رأسها تاج الفخار وفي يمينها صولجان العزة فهي الآن في مهد الطفولية ومنى
هرمت أوربا واشتعل رأسها شيباً وانحنى ظهرها كبراً تكون روسيا عادة فتقانة
لا تزال في ربيع العمر ومقتبل الحياة واذا كانت هذه الثورة في عداد الأسباب
التي تبعث بأمي ووطني الى ارتقاء قمة الفخار في الاستقبال فكفى بها كفارة عن
سائر آثامي وجرائمي التي أتوب عنها الآن الى الله ان الله ولي التائبين

بسط واعتذار

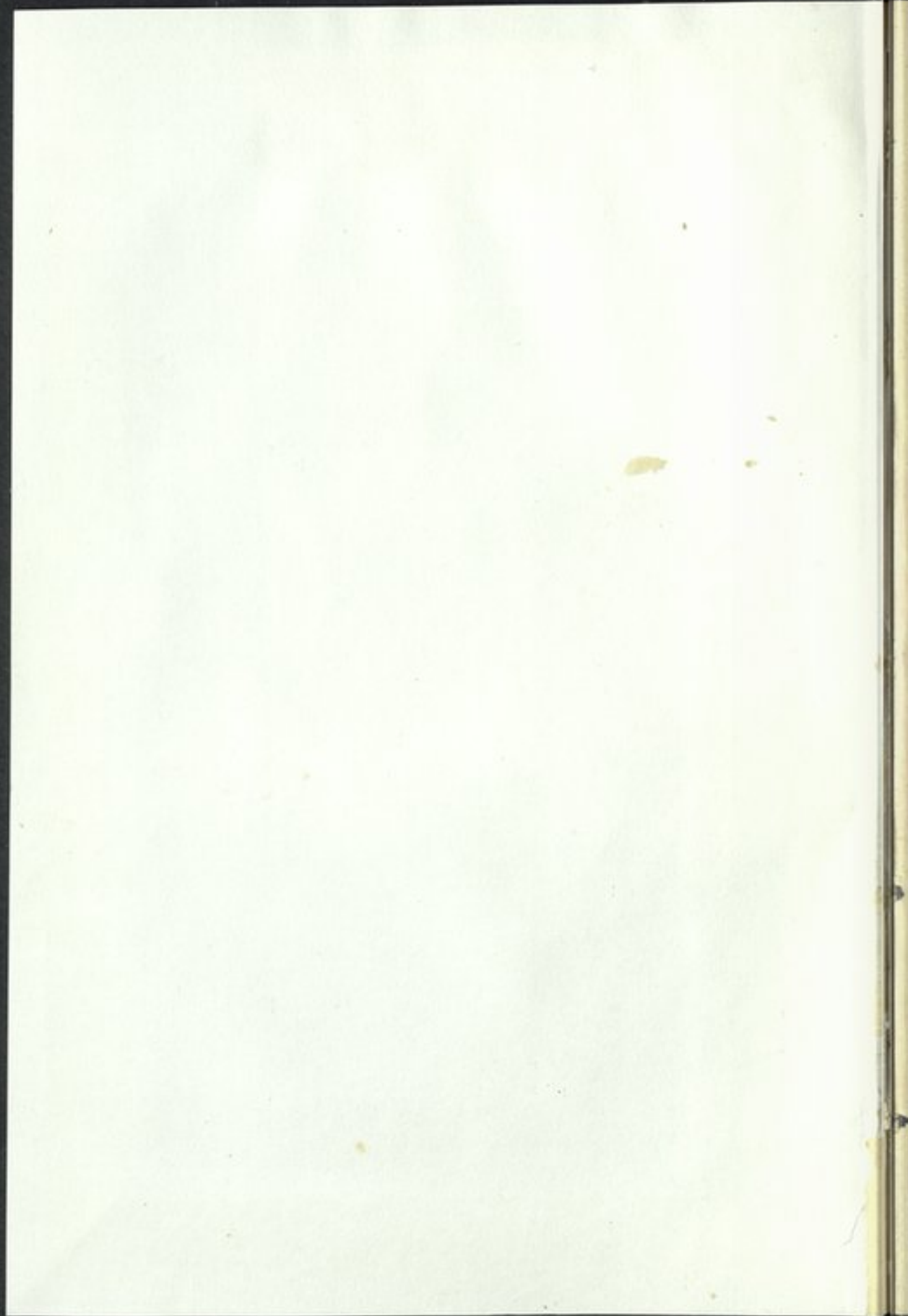


أبجزنا هذه الرواية في نحو ثلاثة أسابيع من الزمن جرى القلم في خلالها خيباً واهماجاً الى حيث نريد ولا نريد وكان الغرض من وضعها أولاً أن تكون بمثابة أساس تبني عليه رواية أوفر حجماً وأوفى بياناً نقطع الى تديجها وتبييضها في ساعات الفراغ ولذلك وجدتها غزيرة المادة زاخرة بالحقائق السياسية الشهيرة والوقائع التاريخية الخطيرة خالية من الحشو الذي هو آفة كثير من الروايات العصرية حتى انه يصح اعتبارها تاريخاً صحيحاً للنهضة الثورية الروسية منذ أصيل القرن التاسع عشر حتى مطلع القرن الحالي فرأى بعض الاصدقاء الخالصاء التعجيل بنشرها كما هي مخافة أن يجر عليها الدهر ذيل العفاء والنسيان فبعثنا بها الى المطبعة تواء دون أن يتاح لنا تنقيحها واعادة النظر فيها ولذلك فقد تخلل صفحاتها من عشرات العجالة والاغلاط المطبعية ما عقدنا النية على ملاقاته في الطبعة الثانية اذا قدر لنا بلوغ هذه الامنية فتقدمنا الآن بهذا الاعتذار الذي نحسبه ديناً اديباً علينا الى بلغاء الكتاب ولا سيما لاننا في زمن اصبحت اللغة العربية فيه فوضى ولا فوضى الثورة الروسية . وعليه فاننا نرجو رصفاءنا أصحاب الاقلام أن يردوا ما يعثرون عليه من هذا القبيل الى باب مراعاة النظير!



الفهرس

ج	توطئة
صفحة	المقدمة
١	الفصل الاول - الجور يلد انما
٥	الفصل الثاني - سيبريا الرهيبه
١٤	الفصل الثالث - تبهان سحيق
١٨	الفصل الرابع - مرتع البغي وخيم
٢٦	الفصل الخامس - وقع السهام ونزعهم اليم
٣١	الفصل السادس - ساعة المنية
٤٣	الفصل السابع - اوله سقم وآخره قتل
٥٤	الفصل الثامن - عاجز أعى ترقى فانقلب
٦٦	الفصل التاسع - احدى حظيات لقمان
٧٥	الفصل العاشر - ماتكن صدور الغواني
٨١	الفصل الحادي عشر - صعقات موسى يوم ذلك الطور
٩٠	الفصل الثاني عشر - وما ظالم الا سيبيلى بأظلم
١٠١	الفصل الثالث عشر - شرارة الثورة
١١٩	الفصل الرابع عشر - جذوة من نار
١٢٨	الفصل الخامس عشر - فلها نورة وفيها مضاء
١٣٤	بسط واعتذار
١٤١	



A.U.B. LIBRARY

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



00335536

